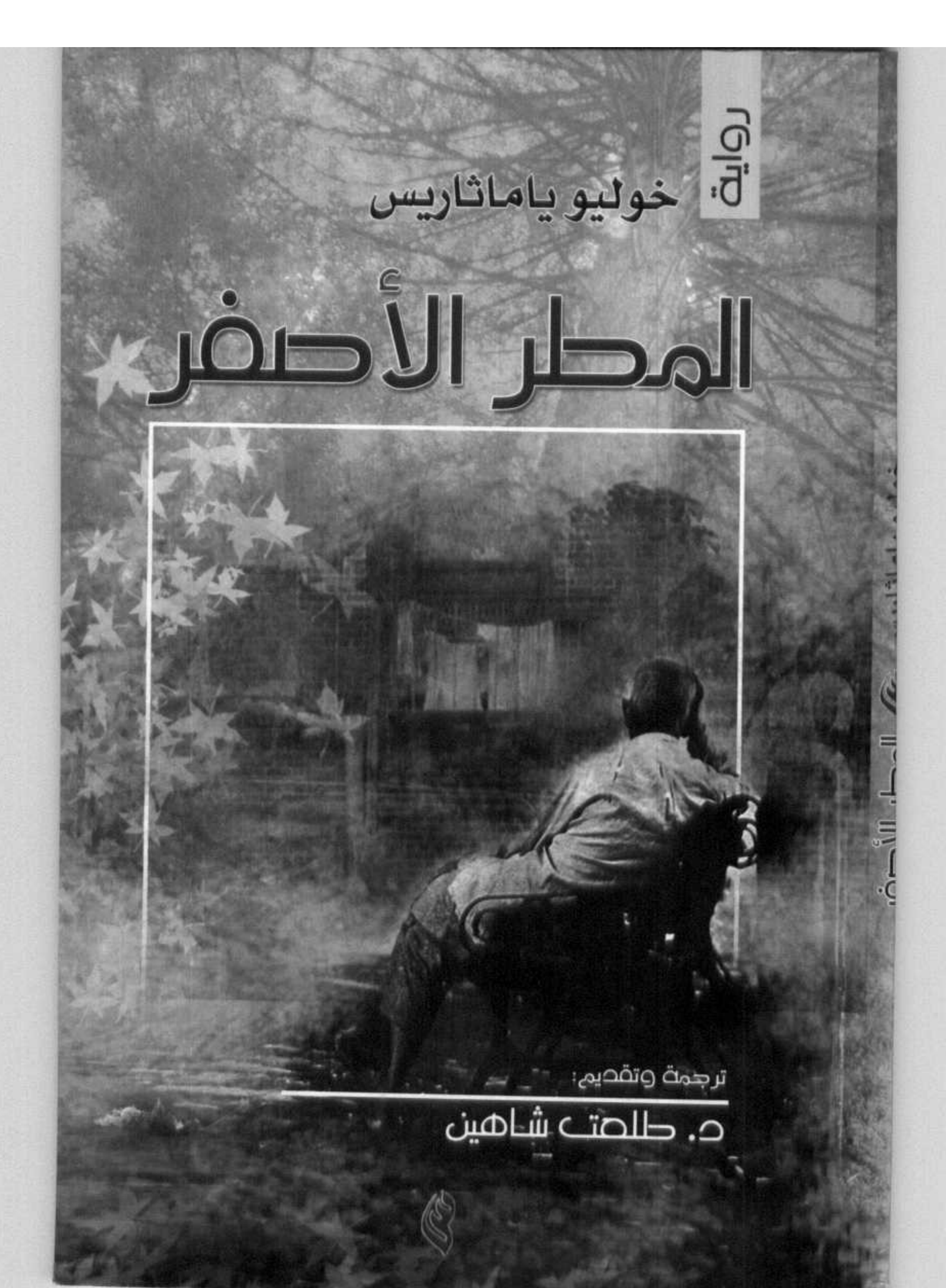

رواية
خوليو ياماثاريس
المطر الأصفر
ترجمة وتقديم:
د. طلعت شاهين



سنابل للكتاب

٥ شارع صبري أبوعلم

باب اللوق . القاهرة

تليفون:

(+202) 2 393 56 56

(+202) 2 392 65 93

e-mail:

sanabooks@maktoob.com

بالتعـاون مـع:



الإسبانية المصرية للكتاب

الإشراف العام

د. طلعت شاهين

sanabook@maktoob.com



المطر الأصفر

المؤلف :

خوليو ياماثاريس

ترجمة :

د. طلعت شاهين

الطبعة الاولى:

1995

الطبعة الثانية:

1996

الطبعة الثالثة:

2008

رقم الإيداع

٩٥٠٨/ ٩٥

تصميم وتنفيذ الغلاف:

كامل جرافيك

المطر الأصفر

"روايـــــة"

للكاتب الأسباني:

خوليو يامـانـاريس

ترجمة وتقديم:

الدكتور طلعت شاهين

هذه الترجمة الكاملة لرواية:

La lluvia amarilla

للكاتب الإسباني:

Julio Llamazares

La presente edición ha sido traducida mediante una ayuda de la Dirección del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España

ينشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة الإسبانية

تقديـــم:

كنت في طريقي إلى بغداد، كانت الطائرة تكاد تكون خالية تماماً إلا من الوفد الإسباني المشارك في مهرجان المربد السنوي في دورة انعقاده عام 1986. وكان الوفد يتكون كالعادة من عدد من المستشرقين وأساتذة الأدب العربي في الجامعات الإسبانية، إضافة إلى عدد من الصحفيين من محرري الزوايا الأدبية في الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية، كانت الحوارات بين من زاروا مدينة "ألف ليلة وليلة" حول ذكريات مضت، بينما حوارات من كانت هذه زيارتهم الأولى حول ما يمكن أن يتبقى من هذه المدينة بعد ما يزيد عن ثماني سنوات من الحرب والدمار الذي كان يلحقها من ليلة إلى أخرى، فقد كانت أنباء الصواريخ الإيرانية بعيدة المدى، التي تتساقط على مدينة الرشيد من وقت إلى آخر قد وصلت إلينا في أسبانيا قبل فترة طويلة، ومع ذلك كان همّ جانب من أعضاء الوفد هو الضياع في أزقة المدينة القديمة والبحث عن واحدة من تلك اللحظات التي يمكن أن تكون بذرة لموضوع ما، أو مجرد ذكرى يقصّها كل منهم في يوم ما لأصدقائه بعد العودة أو لأحفاده إذا كُتب لهذه المدينة أن تبقى.

من بين جماعة الصحفيين كان هناك شاب في منتصف الثلاثينات من عمره، يتميز عن المجموعة بطوله الفارع الذي يكاد يشبه لاعبي كرة السلة، ويميل شعره إلى الشقرة، بعكس غيره من باقي أعضاء الوفد الإسباني مما يدل على انتمائه إلى مناطق الشمال الجبلية، كنت أطالع بعض الصحف العراقية التي قدمتها لي المضيفة عندما اقترب مني وسألني إن كنت عراقياً، وعندما أجبته بأنني مصري مقيم في إسبانيا منذ فترة طويلة، وأنني شاعر وأعمل في مجال الكتابة الصحفية أيضا، حتى بدأ بسلسلة من الأسئلة والآراء التي فهمت منها أنه يعمل صحافياً بالبرامج الثقافية في التليفزيون الإسباني، ولكن هدفه ليس الحرب التي تدور رحاها في ذلك الوقت بين العراق وإيران، ولا حتى مهرجان المربد الذي كان العراقيون يستغلونه في دعوة أكبر عدد من العاملين في المجالات الإعلامية لجذب الأنظار إلى ما يحدث هناك، وإنما همه الوحيد هو المدينة القديمة، وإن لديه رغبة ملحة في زيارة الأسواق نهاراً، والحانات ليلاً، وفهمتُ من حديثه أنه يعرف شيئاً عن شعراء بغداد القدامى، وأنه يود الهيام على وجهه وحيداً على إحدى ضفاف دجلة ليستعيد ليالي "الرشيد" و"شهر زاد".

شاركتنا الحديث كاتبة إسبانية قالت إنها تكتب الروايـــة، لا أذكر اسمها الآن، لأنني لم أقرأ لها من قبل، ولا عنهـــا طـــوال إقامتي في أسبانيا التي امتدت إلى ما يقرب من أربعـــة عـــشر عاماً (كانت هذه الرحلة عام 1986)، وانتهى بنا الحديث إلـــى أشياء متفرقة عن الأدب العربي المعاصر، والحرب التي تدور رحاها الآن في وطن من أعرق أوطان الحـــضارات القديمـــة، واتفقنا على أشياء واختلفنا في أشياء أخرى، كل هذا جرى دون أن يذكر لي شيئاً عن نفسه سوى أن اسمه "خوليو"، حتى أننـــي داعبته بإطلاق اسم "خوليو اجليسياس" عليه، فقاطعني بأنه بعد هذا الحديث الذي استمر ما يقرب من خمس ساعات يفـــضل أن ينام الساعات الخمس الأخرى المتبقية على وصولنا إلى بغداد، حتى يبدأ ضياعه في المدينة من أول لحظة تطـــأ فيهـــا قـــدماه أرض المدينة.

امتدت زياراتنا لبغداد لمدة أسبوع واحد فقط، لم أعثر فيها على "خوليو"، لا في الفندق ولا في أي مكان من الأماكن التـــي انتقلنا إليها طوال فترة المهرجان، بالرغم من أن أكثر المجموعة الإسبانية، من غير المستشرقين، كانت تلوذ بي حتى لا تتعرض للمواقف الحرجة التي يتسبب فيها جهلهـــم باللغـــات، فكانـــت سهراتنا على شواطئ دجلة سوياً، أو نهرب نهـــاراً مـــن رداءة

القصائد التي تُلقي من على المنصات لتضيع في سوق "الصفافير" (النحاسين) الذي يكاد يشبه في جوانب كثيرة منه المناطق المحيطة بشارع المعز الدين الله في القاهرة القديمة، أو ما كنا نقرأه قديماً عن أسواق بغداد المعروفة في التاريخ.

إلا أنه في آخر ليلة لنا في بغداد ظهر "خوليو" في بهو فندق "مليا المنصور" الذي كنت أقيم فيه مع الوفد الإسباني، وطلب أن يرافقنا هذه الليلة لتناول العشاء في أحد المطاعم المنتشرة على دجلة، بشرط أن يكون العشاء مكوناً من "المسكوف"، وهو عبارة عن سمك كبير الحجم يتم شيه بوضعه على مسافة بعيدة من النار، وله طعم لذيذ، ويعتبره العراقيون أفضل أنواع الطعام لديهم، وقضينا الليل بطوله على شاطئ النهر، ما بين الأسماك والشاي والنارجيلة التي كانت بمثابة اللعبة بالنسبة لأطفال حُرموا من اللعب، فقد تباروا فيما بينهم لقياس كمية الدخان التي يمكن لأي منهم أن يسحبها من باطن المياه الرجراجة، فيما انشغل البعض الآخر في التقاط الصور التذكارية لهذه اللحظة التي قد لا تتكرر.

عدنا إلى مدريد وتبادلنا العناوين وأرقام التليفونات مع المواعيد الفضفاضة، أو الوعد باللقاء في ليلة ما قد لا تأتي أبداً، وفي أحد الأيام كنت أمر على بعض المكتبات كالعادة لشراء

بعض الكتب الحديثة، لفت نظري غلاف رواية صغيرة عليها شريط يؤكد أنها الطبعة التاسعة عشر، ومن باب الفضول ضممتها إلى باقي الكتب الأخرى التي قررت أن أشتريها لمتابعة آخر ما يجري على الساحة الأدبية الإسبانية.

كنت في تلك الليلة متعباً فقررت أن أتسلى بالقراءة، ولأن رواية "المطر الأصفر" كانت أصغر الكتب التي اشتريتها حجماً، مددت يدي لأتصفحها دون أن أكلف نفسي عناء قراءة اسم المؤلف، وبعد قليل كنت ألتهم الرواية معجباً بشيئين، أولهما: اللغة الشاعرية الرقيقة المكتوبة في جمل شعرية قصيرة، وثانيهما موضوع الرواية الذي يعتبر جديداً بالنسبة لي في كل قراءاتي للرواية الإسبانية المُعاصرة، وتحت إلحاح خفي انهمكت في القراءة ولم أتوقف حتى أنهيتها في تلك الليلة، وعقدت العزم على أن أعود إليها في أقرب فرصة لأقرأها مرة أخرى، لأنني خمنت أنها تصلح مشروعاً للترجمة إلى اللغة العربية.

ألقيت بالرواية جانباً أفكر في ما تتناوله، وأكاد استعيد كل شخصية من شخصياتها القليلة، التي تتركز في الشيخ وزوجته "سابينا" وكلبتهما التي رافقتهما هذه الرحلة الحياتية القصيرة، باتجاه الموت البطئ الذي انتهت إليه قرية بأكملها تحت وقع

الزمن الذي لا يرحم، تذكرت فجأة أن المؤلف اسمه "خوليو ياماثاريس" فمددت يدي بحثاً عن الركن الذي يضع الناشر فيه عادة بضع سطور عن الكتاب والكاتب، وهذا الركن في الكتب الإسبانية يكون عادة في شريحة (مطوية) من الغلاف يتم ثنيها إلى الداخل، فتحت الغلاف فإذا بصورة "خوليو" تطالعني ولكن نظرتها كأنما تريد أن تتجنب النظر في عيني وتتجه إلى مكان آخر، وكأنها لا تريد أن تواجهني، فتذكرت "خوليو" وهو يشد أنفاس النارجيلة على شاطئ دجلة، وهوسه المجنون للضياع في مدينة لم يعرفها من قبل.

إن رواية "المطر الأصفر" تفتح الباب أمام الرواية الأسبانية للخروج إلى عالم أوسع وأرحب، فتتخطى الموضوعات التقليدية التي تدور حول الحب والحرب، أو يكون الغجر موضوعات حية لها. أنها تتناول موضوعاً لم يُطرح من قبل، بالرغم من وجوده الملح في الحياة الإسبانية المعاصرة، موضوع القرى الصغيرة المنتشرة في الجبال والتي تموت موتاً فيزيقياً لا مجازياً، فإسبانيا كانت حتى وقت قريب تتميز بانتشار قراها الصغيرة على طول الخارطة وعرضها بشكل غريب، وبعض هذه القرى لا يزيد عدد سكانها عن عدد أصابع اليد الواحدة،

وبعض هذه القرى تحاول أن تمنح نفسها أهمية على غيرها من القرى المجاورة، فتختلق أساطير حول الأبطال والقديسين الذين أنجبتهم، أو عاشوا فيها، أو حتى مروا على أرضها في رحلتهم الحياتية، لتتباهى بها أمام القرى الأخرى، تلك الأساطير التـــي ازدادت انتشاراً في أعقاب الحـــرب الأهليـــة (1936– 1938) التي ذهب ضحيتها عدة ملايين، ولعبت هـــذه القـــرى خاصـــة الشمالية منها– دوراً كبيراً في هذه الحرب، ولذلك فإن فتـــرات الحصار الطويلة التي كانت تضربها قوات الجنـــرال "فرانكـــو" على هذه القرى، كانت موضوع الرواية الأولى لهـــذا الكاتـــب الصادرة عام 1985، "قمر الذئاب". والتي انتقلت إلى الـــشاشة الكبيرة لتحقق نجاحاً كبيراً، ثم كان التجويع الذي عاشته هـــذه القرى سبباً في هروب شبابها إلى المدن الكبيرة، أو إلـــى دول أوروبا حيث كان الإسبان طوال العقود الأربعة التـــي حكمهـــا "فرانكو" هم خدم تلك البلاد، بعد ذلك كان الشباب الذي يـــذهب لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية ولا يعود، ومن بقي منهم كان يداعبه حلم الهجرة إلى عالم أوسع وأرحب من تلـــك البيـــوت الصغيرة التي يحاصرها الشتاء الـــشمالي الطويـــل بثلوجـــه، وتتعرض خلاله لهجمات الذئاب الجبلية الجائعة.

بعض هذه القرى تآكل حجمها، وأصبحت من الصغر، بحيث أن بعضها كان يسكنها عدد لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، وأذكر أنني زرت قرية في أحد الجبال القريبة من العاصمة مدريد، ولم أشاهد فيها سوى عمدتها ونائب العمدة وهي زوجة العمدة نفسه، والخفير الذي يحرس البيوت الخالية إلا من الكلاب الضالة، وكلهم تخطوا العقد السابع أو الثامن من أعمارهم، هذه القرى تتوارى الآن وتموت في صمت إلى أن يتم محوها من على الخريطة دون أن يدري بها أحد، وتتحول إلى مجرد ذكرى على لوحة صغيرة تتآكل أطرافها مع مرور الزمن، والثراء الذي يقدمه هذا الموضوع لأعمال "خوليو ياماثاريس" له أبعاد عديدة يتميز بها حتى في كتابته الشعرية، فقد بدأ حياته شاعراً، ودخل باب الرواية من خلال اللغة الشاعرية المكثفة والمعبرة، فهو يرسم شخصياته القليلة العدد بدقة متناهية، وينفخ فيها الحياة، فتتحرك وتمارس زمنها الروائي عبر مخيلة ثرية تجعلها أقرب إلى القارئ من الأشخاص الذين يحيطون به في الحياة.

يتقن هذا الكاتب حرفته، ويعرف المكان الذي تتحرك عليه شخصياته بدقة متناهية، لأن هذا المكان ليس إلا القرية التي

شهدت مولده ومجيئه إلى الحياة، ولا يريد أن يعترف أن القرية التي شهدت رؤيته للنور قد ماتت واندثرت إلى الأبد، لذلك قرر أن يخلدها بأن يكتب أسطورة موتها، وبأسطورة موتها هذه يخلقها من جديد لتبقى في أذهان قراء لم يروها، ولا حتى سمعوا عنها، إنها العبقرية الروائية التي وضعت "خوليو ياماثاريس" في فترة مبكرة من حياته في مصاف كبار كتاب الرواية في إسبانيا، وهو لم ينجح في احتلال هذه المكانة في عالم الرواية فقط، بل يحتل أيضا مكانة هامة بين كُتاب المقال في الصحافة الإسبانية، حيث تحتفي جريدة "البابيس"، أكبر الصحف الأسبانية وأوسعها انتشاراً بمقالاته، وتستغل اسمه في تسويق بضاعتها الرائجة.

الرواية التي نقدمها إلى القارئ العربي اليوم تعتبر مثالاً للرواية الإسبانية المعاصرة، التي تحاول أن تستعيد الصدارة التي فقدتها أمام طوفان الرواية القادمة من أميركا اللاتينية، التي انتزع كتابها في العشرين سنة الأخيرة من الكتاب الإسبان زعامة الكتابة النثرية باللغة الإسبانية.

يصف البطل قصة قريته التي كانت تموت أمام عينيه، فقرر أن تظل على قيد الحياة ما دام هو على قيد الحياة، إلا أن

الظروف لم تساعده: الجيران يغادرون الأرض التي تموت بحثاً عن حياة أفضل، فهجروا بيوت القرية، حتى ابنه الوحيد المتبقي بعد فقدان الابن الأكبر في الحرب الأهلية، والطفلة الوحيدة التي قضى عليها المرض الذي ينتشر في مثل هذه القـرى الجبليـة الباردة، ثم أصابت العزلة رفيقته وزوجته "سـابينا" بـالجنون وتخلصت من حياتها حزناً على حياتها التي كانت تـذبل مـع نيران المدفأة التي يتحلقان حولها في الشتاء، وتذكره كلبته التي لم تكن تدري شيئاً عما يحدث من حولها، واتهمه سكان القـرى الأخرى القريبة بالجنون، لأنه يريد أن يوقف عقـارب الـزمن ويمنع القدر المحتوم من الوقوع.

في نضاله من أجل البقاء حياً والحفاظ على حياة قريته يكاد يفقد البطل حياته أكثر من مرة، فيركن إلى العزلة التـي تعلـن موته المعنوي بعد أن قرر الانعزال والحياة باجترار الذكريات، إلا إنه يحاول خلال تلك العزلة أن يخلق عالمه الخاص الـذي يعينه على مواصلة الحياة والحفاظ على ما تبقى مـن القريـة، ويخلق حياة موازية للحياة المفتقدة في القرية التي تموت ببطء، لكن الزمن يقرر أن لكل شيء نهاية حتى القرى، فيجبره على قبول الواقع الذي يفرض نفسه على القرية، ولكن كل هذا يحدث

على جثة البطل ورغم أنفه، وهو الذي يعلم النهاية المحتومة ويتقبلها راضياً ولكنه يواجه المصير بكل شجاعة ويرفض الاستسلام.

إنها قصة قرية ترفض الموت أو تواجه القدر، والبطل هو المقاوم الذي يقود أحجار القرية وجدرانها إلى المقاومة، لكنها لا تستطيع أن توقف زحف طحالب الزمن، فتستسلم له تاركة بطلها يموت وحيداً، لأن القرية هجرها أصحابها، وفقدت جزءاً هاماً من معتقدها الذي ربما أبعد عنها الموت حسب هذا المعتقد فـ" الموت لا يتجول في القرية لأكثر من يوم واحد، وعندما يموت أحد في القرية، كان النبأ ينتقل من جار إلى جار حتى نهاية القرية، والذي يكون آخر من يعلم بالنبأ، عليه أن يخرج إلى الطريق ليخبر به أي حجر، لأنها الطريقة الوحيدة للتخلص من نبأ الموت، والأمل أن يمر أحد عابري السبيل، ويأخذ الحجر في طريقه دون أن يعرف"... إلا أن البطل الذي حاول إنقاذ القرية من الموت، فقد الأمل في أن يجد من ينتزع من القرية هذا الموت المحتوم الذي ينتظره، فعاش لحظات حياته وحياة القرية الأخيرة، قلقاً يبحث عن لحظات النهاية وحيداً.

د. طلعت شاهين



(1)

عندما يصلون إلى أقصى المرتفع، سيكون اليوم قد اقترب من نهايته، والظلال الثقيلة تزحف في الجبال كالأمواج، وتسير أمامها الشمس متعثرة في خطاها، مخضبة بالدماء، تتثاقل أمام الظلال خائرة القوى، تاركة خلفها آثار البقايا المهدمة، التي كانت يوماً ما (قبل ذلك الحريق الذي فاجأ العائلة، وحيواناتها أثناء النوم) المنزل الوحيد في هذا المرتفع، ومن يقود الجماعة عليه أن يتوقف إلى جانب هذا البيت، متأملاً بقاياه والعزلة الثقيلة التي تلف المكان، سيتثاقل في مشيته حتى تلحق به بقية الجماعة، سيأتون جميعاً هذه الليلة: "رامون" من بيت "باسا"، و"خوسيه" ابن "بانو"، و"رخينو"، و"بنيتو" الفحام و"انطونيو" وإبناه، رجال أنضجتهم السنون والعمل، رجال شجعان، طُبعوا على الحزن وعزلة تلك الجبال، لكن رغم كل هذا– والعصي والبنادق التي يتسلحون بها– هناك ظل للخوف والقلق يلف نظراتهم وخطاهم هذه الليلة، سيتأملون للحظات، بقايا البيت المحترق، الذي يتحول بعد ذلك إلى بقايا في ركن الذاكرة.

أمامهم في البعيد، في الجانب الآخر للجبل أسطح وأشجار "أينيلي" الغارقة بين الصخور والأخاديد. تبدأ في الذوبان مع الظلال الأولى لليل على العكس من هنا، حيث يأتي الليل مبكراً، ومشهد القرية من أعلى، معلق على البحيرات كانهيارات الحجارة، وتبقى المنازل المنخفضة التي تأخذ الشمس منها بعض اللمعان الذي ينعكس على النوافذ الزجاجية والأسطح الملساء، وفي الخارج يخيم الصمت والهدوء، لا تسمع أدنى حركة ولا يُرى أي أثر لدخان، لا أثر ولا

حتى ظل أثر في الشوارع، ولا أدنى أثر لستارة في أي من النوافـذ المتعددة للقرية، لا يمكن التكهن بأي أثر للحياة، مع ذلك فإن الـذين يتأملون القرية من المرتفعات سيعرفون أنني هنا بين الهـدوء التـام والصمت المطبق والظلال، سيعرفون أنني رأيتهم وسأظل انتظرهم.

تستمر المسيرة، بعد عبور بقايا البيت المحترق، ويبدأ الطريـق في الاتجاه نحو المنخفض الجبلي باتجاه الوادي عبر أشجار البلـوط والأحجار الملساء، ثم يضيق ويلتصق بجانب الجبل، ويبـدو كحيـة كبيرة تتمدد باحثة عن الرطوبة القريبة، وأحياناً يضيع الطريق بـين الأحراش، وأحياناً أخرى، يختفي تمامـاً لمـسافات طويلـة، تحـت الأحجار الكلسية، لم يمر أحد غيري على هذا الطريق طـوال هـذه السنوات، يواصلون بعد ذلك في صمت، وبـبطء شـديد، ويتبعـون متقدمهم، ثم سرعان ما يصلهم خرير النهر العميق، تُطلـق بومـة– ربما تكون تلك التي تعبر أمام نافذتي الآن– صـرخة بـين أشـجار البلوط، وحين يخيم الليل، يُشعل قائد المجموعة بطاريتـه، ويحـافظ على اتزان خطاه، ويتبعه كل الرجال، كما لو كانوا ظله، ستتعلق كل العيون بقتامة البحيرة، حينئذ ينعكس الضوء الأصفر الشبحي علـى سطح البحيرة، فتمتد أيديهم لتتحسس البنادق بعصبية، يكتشفون ظـل الطاحونة– ما زالت ترتفع رغم تعفن الحديد والنسيان– وبعـد ذلـك تبدو القرية في العمق، يتقاطع ظلها المجنون مـع الـسماء، تـصبح أمامهم تماماً، قريبة جداً منهم، تنظر إلـيهم بعمـق عبـر نوافـذها الفارغة.

سيملأ فوران النهر قلوبهم بالرعب عندما يلتقون بجريانه عنـد السد الخشبي القديم، ربما في هذه اللحظة، تـسيطر علـى بعـضهم

الرغبة في الدوران للخلف والعودة مقتفيا آثار خطواته، لكن بعد فوات الأوان، يضيع الطريق مع النهر خلف الحواجز الأولى، وتكون بطارياتهم قد أثارت ذلك المشهد الخرس للجدران والأسطح الممزقة، والنوافذ المتساقطة، البوابات والحواجز المنزوعة من مكانها، بنايات كاملة منكسة ترقد كالحيوانات إلى جوار جدران بنايات أخرى ما تزال تقاوم، متحدية، ما زلت أراها عبر النافذة بين الإهمال والنسيان، كما لو كان الأمر يتعلق بمقابر حقيقية، سيتعرف بعضهم لأول مرة على قدرة حشائش "الاورتيجا"[1] الرهيبة التي هيمنت على الشوارع ومداخل البيوت، وبدأت تهاجم وتدمر قلوب وذاكرة البيوت، قد يفكر بعضهم في تلك اللحظة، بأنه لا يمكن لأحد أن يقاوم كل هذا الموت، وهذه العزلة طوال سنوات، إن لم يكن قد أصابه الجنون.

سيتأملون القرية لحظات طويلة في صمت مقدس، يعرف جميعهم القرية منذ قديم الزمان، كان لبعضهم عائلة هنا، سيتذكر كل منهم عندما كان يصعد لزيارة أهله في أعياد الخريف ورأس السنة، وكان آخرون قد عادوا إلى هنا لشراء بعض الماشية والأثاث القديم عندما بدأ الناس في الهجرة من القرية، كانت تُباع بأثمان زهيدة، وبدون اهتمام للحصول على بعض المال لبدء حياة جديدة في السهول أو في العاصمة، لكن منذ أن ماتت "سابينا" بقيتُ أنا وحيداً في "اينيلي"، صرت منسياً من الجميع، محكوم عليّ باجترار ذكرياتي وعظامي ككلب مسعور، تخاف الناس الاقتراب منه، لم يعد أحد يغامر بالعودة إلى هنا، منذ ما يقرب من عشر سنوات، عشر سنوات

[1] نبات الثأر، أو حشيشه القريض "قاموس كورنيتي"

طويلة من العزلة الكاملة، رغم أن بعضهم من وقت لآخر كان يصعد الجبل بحثاً عن الأخشاب، أو لرعي الأغنام في الصيف، لكن بعيـداً عن القرية، لم يتخيل أحد الآثار الرهيبة التي تركها النسيان في هـذا الجسد الحي.

لن يكون من السهل عليهم التعرف على البيت، بسبب الذكريات الباهتة، والدمار والليل الذي يشتت العيون، ربما يعتقد بعـضهم أنـه من الأفضل ندائي، تحطيم ضـباب الـصمت الثقيـل، وأن يتركـوا للصوت مهمة البحث عني خلف الأبواب المفتوحة، خلـف الزجـاج المحطم، خلف الظلال الثقيلة التي تغوص الذاكرة في سلبيتها، التـي تشبه سلبية الليل غير المفهومة، لكن فكرة النداء وحدها كانت كافيـة لإزعاجهم، لأن الصراخ هناك في الخارج كالصراخ فـي المقـابر، الصراخ هناك في الخارج لن يؤدي إلا إلى كسر توازن الليل وأحلام الموتى الساهرة.

لذلك سيقررون مواصلة البحث عني فـي صـمت، سيفتـشون القرية دون أن يتفرقوا، يتبعون الأضواء وغريزة الـذكريات التـي تعبر عن عجزهم، سينتشرون في الشوارع والأفنية، يتبعون خطـاهم إلى أن يصلوا إلى خرير النافورة، بعد هيام طويل سيجدونها هنـاك تحت غابة نبات الاورتيجا، وقد تخمرت بالحزن والوحـل الأسـود، ومع ذلك عليهم أن يبذلوا مجهـوداً أكبـر لرؤيـة الكنيـسة، التـي سيجدونها أمامهم، إلى جانب النافورة تماماً، لكن ضوء البطاريات لن يكشفها حتى يتقاطع فجأة مع صليب حديدي، وقتها سيتأملون مفاجئين دون رغبة في الاقتراب منها، سيتأملون من بعيـد الـرواق الـذي اجتاحه العليق والأخشاب المتعفنـة، الأسـقف المتـساقطة، ويـرج

الأجراس الذي ما زال يرتفع على الخراب وآثار الكنيسة كشجرة حجرية، كعملاق بعين واحدة، هدفه الوحيد في البقاء هو أن يبين للسماء سبب الحدقة الفارغة، لكن هذا سيفيدهم في تحديد الاتجاه الصحيح لطوافهم المزعج بقرية "أنيلي".

ربما يتوقفون خطأ للحظات أمام بيت "بيسكوس"، خلف بقايا الكنيسة، لكن تهدم السقف وصدأ النوافذ والأبواب، يدفعهم إلى التأكد من أنه لا أحد يعيش هناك منذ زمن بعيد، يسد البيت واجهة الشارع، بين ظلال شجرة الجوز وجانب المزرعة الذي يفقد معالمه كل يوم، تتسلق الحشائش المرتفعة السياج وصنبور النافورة، التي تتداح مياهها طليقة في منتصف الشارع، لأنه لم يكلف أحد نفسه بتوجيهها نحو السد، فتدخل تحت الأشجار المتساقطة، تملأ جذوعها الطحالب، ويفتش الرجال ببطارياتهم عن مدخل الباب والحظيرة، لكن بقايا السقف القديمة، وكثافة رائحة البيت خلف النوافذ والأبواب، يجعلهم يعتقدون أنه خال من السكان، فالصدأ والنسيان يعلقان به، كالبيوت الأخرى تماماً، ولا حتى البريق اللحظي لذكرى ما، يجعلهم يفكرون أنهم أمام البيت الذي يبحثون عنه، سيكون الصمت- هذا الصمت الذي يغوص في كل قطعة وكل ركن كاللعاب اللزج- هو الذي قد يدفع الرجال. أولاً إلى الاشتباه، ثم إلى التأكد من أنهم أمام نفس الباب الذي مرّ منه بعضهم وهم يحملون الصندوق الذي ضم جسد "سابينا"، عندما لم يكن فى "أينيلي" أحد يمكنه مساعدتي في نقلها إلى المقابر.

إن تحطم المزلاج في مقاومته لدفع إحدى الأيدي، كان كافياً لكسر توازن الليل وفقاعات صمته العميقة، من تجرأ على فعل ذلك

تراجع كالخائف من نفسه، وظلت الجماعة مشلولة بلا حركة، وفي صمت تتسمع إلى تردد صدى الصوت المزعج في القرية، اعتقدت للحظات أن هذه الضربات لن تتوقف أبداً، للحظات ارتاعوا من الخوف من أن تستيقظ القرية من نومها- بعد كل هذا الزمان- فتظهر أشباح سكانها القدامى أمام أبوابها من جديد، لكن مع مرور الثواني البطيئة التي امتدت بلا نهاية، لم يحدث أي شيء على الإطلاق، عاد الصمت والليل يخيمان على القرية من جديد، وعاد ضوء البطاريات يتحطم على الباب من جديد، دون أن يجد انعكاسه في حدقتي عيني أمامهم.

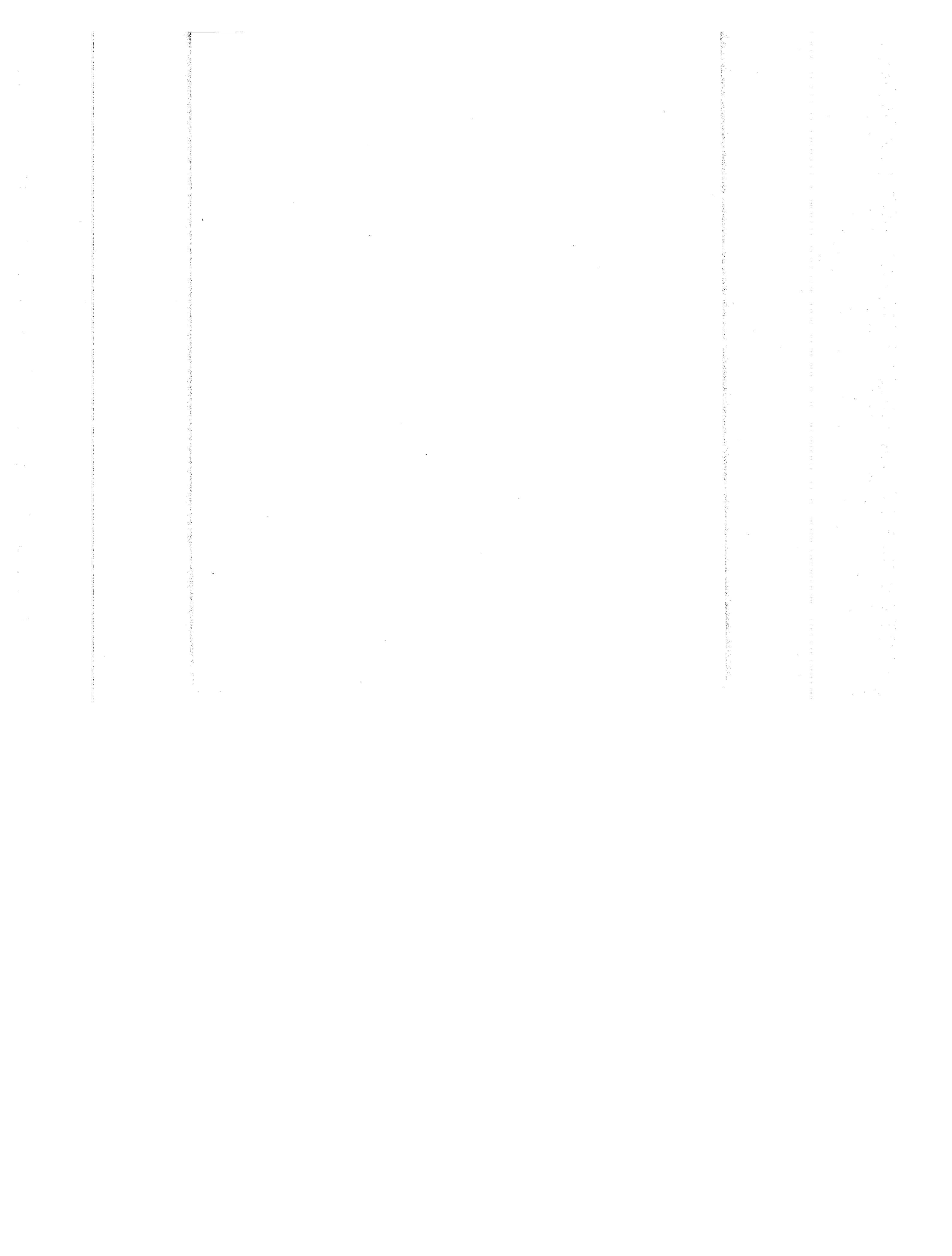
لكن سيعرف الرجال أنني لا أبعد كثيراً، سيقول لهم ذلك خرير مجرى الماء وظل البلوط على الواجهة، سيقوله اكتمال الليل خلف النوافذ، ربما يعتقدون أنني عندما شاهدتهم يقتربون من الجبال، أغلقت على نفسي بالمفتاح في أقصى ركن خبئ لا يمكن الوصول إليه، وربما لا يشكّون أن هذا هو أول مكان يمكنهم أن يبحثوا عني فيه، فقررت الاختباء في الجبل أو بين ظلال وبقايا البيوت الأخرى، حيث يمكنني التجسس عليهم دون أن يشعروا، على أية حال هم مقتنعون أنني لن أخرج من جحري أبداً ما داموا هم في القرية، ولو عثروا عليّ لا شك في أنني سأقاومهم بأقوى مما ينتظرون.

مع ذلك لن يكون هناك خيار، عندما يأتون إلى "أينيلي"، سيكون ذلك للعثور عليّ، وعندما يصلون هناك أمام ذلك الباب، لن تكون هناك حاجة إلى الليل، الذي يسبقهم، بينما زوجاتهم وأطفالهم ينتظرون عودتهم بقلق في مطابخ قرية "بيربوسا"، لن يطول الوقت قبل أن يقرر أحد الرجال تخطي التردد، فيطبق على بندقيته، ويقترب

من الباب بحزم، ينير له أحدهم ببطاريته بينما يقـرب هـو فوهـة البندقية من المزلاج ليحطمه، ربما تصدر عنه إشـارة تطلـب مـن الآخرين الابتعاد، لكن الوقت لن يكون كافياً، فالانفجار سيكون قويـاً وضارباً، يشل حركة الجميع.

عندما يعودون إلى وعيهم، سيكون صوت الطلقة قد اختفى، لكن رائحة نفاذة ستغزو الشوارع، وسحابة من الدخان ستمزق الليل على قمم الأشجار، ويقترب الرجال بخوف وبطء مـن البـاب، سـيكون المزلاج قد قفز كعصا جافة، وبدفعة خفيفة يمكن فتح البـاب علـى مصراعيه أمام البطاريات، ويبدأ الرجال في تفتـيش البيـت بقلـق، وتكاد أنفاسي المتقطعة توقف نبضي، يفتشون الغرف التي في الطابق الأول، والسياج الملاصق للمطبخ، والمخازن الأرضية، كـل ذلـك سيحدث بسرعة، وبداية من تلك اللحظة (أحاول أن أتذكر التفاصيل). لن يستطيع أي منهم معرفة أي شبهة تلك التـي أدت إلـى الحقيقـة المؤكدة، لأنه عندما يبدأ أحدهم في صعود السلم سيتبعه الآخـرون، فأكون في انتظارهم، يتقدمهم برد فجائي غير مفهوم.

لذلك لن يجرؤ أي منهم على الإشارة بعلامة الـصليب أو مـا يشير إلى التقزز، لأن البطاريات ستعثر عليّ خلف هذا الباب، ممدداً على السرير، بكامل ملابسي، أواجههـم بنظراتـي، وقـد أكلتنـي الطحالب والطيور.



(2)

نعم، مؤكد أنهم سيجدوني على هذا الوضع، ما أزال بملابسي، انظر إليهم، سيجدونني بنفس الطريقة تقريباً التي وجدت عليها "سابينا" بين ماكينات الطاحونة المهجورة، كنت في ذلك اليوم وحيداً، لم يكن معي شهود غير الكلبة وأنين الضباب عند ارتطامه بأشجار النهر.

(غريب أن أتذكر هذا الآن، أوشك الزمن على التلاشي، والخوف يخترق العيون، والمطر الأصفر يزيل عنها الذاكرة، وضوء العيون الحبيبة، ويزيل كل العيون عدا عيون "سابينا"، كيف أنسى تلك العيون الباردة التي كانت تخترق عيني وأنا أحاول فك العقدة لأعيدها للحياة، كيف أنسى ليلة ديسمبر تلك، التي كانت أول ليلة أمضيها وحدي في "أينيلي"، أطول وأسوأ ليلة فى حياتي.)

مضى شهران على رحيل عائلة "خوليو"، انتظروا نضج المحصول، ثم باعوه في "بيسكاس" مع الأغنام وبعض الأثاث القديم، كان ذلك صباح يوم من أيام أكتوبر، قبل أن يشرق الصباح، حملوا ما استطاعوا على ظهر الفرس وابتعدوا في الجبال باتجاه الطريق، هربتُ أنا في تلك الليلة واختبأتُ في الطاحونة، كنتُ دائماً أفعل ذلك عند رحيل أي شخص حتى لا أودعه، حتى لا يرى أحد المأساة التي كانت تختفي عندما أرى بيتا في "أينيلي" يغلق أبوابه، وأجلس في الأرض الفضاء، كقطعة مهملة بين ماكينات الطاحونة، كنت أسمع

وقع أقدامهم يضيع شيئاً فشيئاً في الطريق المتجه إلى السهل، مع ذلك كانت تلك المرة الأخيرة، لم يكن هناك بيت يمكنه أن يغلق أبوابه بعد بيت "خوليو" سوى بيتي، ولا أمل في البقاء في "أينيلي" سواء بقائي. لذلك قضيت الليلة مختبئاً في الطاحونة، وعندما طرق "خوليو" بـــاب بيتي في الصباح الباكر، كانت "سابينا" هي الوحيـــدة التـــي تـــسمع طرقاتهم، لكنها لم تهبط السلم لتفتح لهم الباب، ولم تقترب من النافذة لتودعهم ولا حتى بإشارة أخيرة، أو نظرة أخيرة، بقلب محطم وذهن مشتت من البكاء، وضعتْ رأسها تحت الوسادة حتى لا تسمع الطرق على الباب، ولا وقع حوافر الفرس وهم يبتعدون عن القرية.

ذلك الخريف كان أسرع من المعتاد، فما زلنا في أكتوبر، وقــد ضاع الأفق ملتحماً بالجبال، وبعد أيام قليلة جاءت الرياح من فرنسا، كنت و"سابينا" نراها طوال أيام، عبر النافذة، وهي تمـــسح الحقـــول العزلاء وتدوس في طريقها سياج الكروم، وتنزعهـــا مـــن مكانهـــا، وتقذف بأوراق أشجار الحور قبل أن تفقد خضرتها وطوال الليـــالي، كنا نجلس إلى جوار المدفأة نسمع عواء الرياح الـــذي يـــشبه نبـــاح الكلاب، وهي تضرب الأسطح، كما لو كان ذلك العبوس لا يرغـــب في مغادرتنا أبداً، كما لو كان انطلاقه المفاجئ لا سبب لـــه ســـوى مرافقتنا في أول شتاء نقضيه أنا و"سابينا" فـــي عزلـــة كاملـــة فـــي "أينيلي".

رغم هذا، استيقظنا في صباح أحد الأيام، على صـــمت عميـــق يعلن عن رحيل الرياح، وتأملنا من نافذة هذه الحجرة آثار تلك الرياح المدمرة: أسطح وأخشاب منزوعة، أعمدة متساقطة، أفرع محطمـــة، بقايا أخاديد ومشاتل وجدران. في تلك المرة كانت الريح أكثر عنفـــاً

مما تعودنا، وانتشرت في الوادي أشجار الحور المتساقطة، يغطيها الطين الملتصق بجذورها، وقبل أن تذهب الرياح، كانت العاصفة قد سكنت بين البيوت كبقايا حيوان خرافي جريح، وعضت الشوارع ببقايا الطيور وأوراق الأشجار وبدت كبقايا معركة متوحشة. الأوراق متراكمة إلى جوار الأسيجة، اختلطت بها الطيور التي عصفت بها الرياح بين الأشجار ونوافذ البيوت الزجاجية.

كانت بعض هذه الطيور عالقة بأفرع الأشجار، والبعض الآخر كان ما يزال يتخبط في الشوارع، وقضت "سابينا" يوماً كاملاً، تجمع البقايا بعصا قديمة، ثم أوقدت ناراً في فناء بيت "لاورو"، وأمام عيني وعيني الكلبة المخذولة بللت "سابينا" الغنيمة التي خلفتها الرياح أثناء مرورها وأشعلت فيها النار.

جاء نوفمبر مبكراً بروحه الباهتة وأوراقه الميتة، وصارت الأيام أقصر من المعتاد، وأخذت الليالي الطويلة تلفنا إلى جوار المدفأة في ضجر عميق، كصخرة مدمرة وتحولت الكلمات إلى رمال، تفتح في الذاكرة طريقاً للظلال الممتدة والصمت.

قبل ذلك، عندما كان هنا "خوليو" وأسرته (قبل أن يموت "توماس" وهو يحاول الحفاظ على توازن البيت القديم وزوجته "جابين") كنا نتجمع في أحد البيوت معاً، نظل لساعات طويلة إلى جوار المدفأة، والعواصف تزمجر على الأسطح، كنا نقضي الليالي، نقصُ الحكايات ونتذكر ناساً وأحداثاً في الأزمنة الغابرة، كانت النار تقربنا أكثر من رباط الصداقة والقرابة، الكلمات تساعدنا على مقاومة البرد وحزن الشتاء، أما الآن فإن ما يحدث على العكس تماماً، النار والكلمات تباعد بيني وبين "سابينا" أكثر فأكثر، الذكريات تزيد من

صمتنا وغربتنا، لذلك عندما جاءت الثلوج، كانت البرودة قد سكنت قلوبنا منذ زمن بعيد.

في أحد أيام ديسمبر السابقة على عيد الميلاد، وهو أول عيد نقضيه وحدنا في "أينيلي" فقد كنا نخافة أكثر من أي وقت مضى، في ذلك اليوم، صعدت مبكراً إلى السفح مسلحاً ببندقيتي، كان الخنزير البري قد عاث في الحقول بحثاً عن جذور البطاطا القريبة من أسيجة البيوت. كان يترك في الصباح مجرى داكناً من الأرض المحروثة التي تعلن عن زياراته السرية الليلية، كان قد مضى وقت طويل قبل أن تكتشف الكلبة مكانه، كان خنزيراً صغيراً، يختفي بين الأشجار من وقت لآخر، قافزا خلف أحد الطيور، كانت تهبط من القمم نسمة خفيفة مستها يد الثلوج الخفية، تختلط بروائح الجبال وإشاراتها، عند منتصف الليل كنت فقدت الأمل في العثور على زائرنا الليلي، لكن مع إشارات الصباح شاهدته من بعيد، يظهر بين الأحراش ويعبر مجرى حقل "يوسا" متقافزاً فوق الوحل، ثم يصعد باتجاه المكان الذي كنت انتظره فيه، أشرت على الكلبة أن تبقى هادئة حيث كانت. انبطحتُ على الأرض إلى جوار أحد الجدران والبندقية في وضع الاستعداد والسكين في اليد الأخرى، كان الخنزير يصعد المنحدر في خطوات بطيئة وواثقة، كان منتفخاً تحت ثقل هجومه الليلي، واعتاد هدوء القرى الخالية المحيطة بالمنطقة، كان يسير بين أشجار البلوط بثقة واطمئنان من يعتقد أنه السيد والساكن الوحيد، فقأت الطلقة الأولى عينه اليمنى، وألقت به لمسافة تزيد عن المتر، تركته طريحاً على الأرض، يزمجر من الألم والمفاجأة، ثم تمكنت من إصابته بطلقتين أخريين، واحدة في بطنه، والأخرى في حلقة، قبل أن أجهز عليه بطعنة واثقة وعميقة.

في تلك الليلة لم استطع النوم حتى وقت متأخر، كانت العاصفة تضرب السطح والنوافذ الزجاجية، بينما تنبح الكلبة أمام الباب وهي تراقب من بعد الطيف الدموي المدلي من إحدى الدعامات، كان الطيف لعقدة الجبل الذي استعنت به في المساء لسحب الخنزير البري من حافة الوادي إلى البيت، مر وقت طويل قبل أن يحدث ما يقلق نظام حياتي الاعتيادي، غبت طويلاً في تلك الليلة وأنا أتذكر ألف مرة ومرة تلك الصور الساكنة الجامدة، كل لحظة صغيرة لما حدث في منتصف النهار.

عندما استيقظت، كان الصباح لم يأت بعد، والغرفة مظلمة تماماً، لكن شعاعاً بارداً كان ينعكس على الزجاج المستطيل بحياء غريب ويحدد إطار النافذة الصغير، إنها الثلوج التي كانت تتساقط على "أينيلي"، كلعنة بيضاء قديمة، وبدأت تغطي الأسطح والشوارع، استنفدت العاصفة قوتها، فسيطر على القرية هدوء طويل، منحها صمتاً وأماناً عندما غلبني النعاس للحظات قليلة، بدأت ثلوج الطفولة تتداخل في اللحظة- كما لو كان مشهد النافذة والثلوج المتساقطة على القرية يكون جزءاً من الذاكرة- تضيف إلى الليلة آثار ليال أخرى، تنتزع العزلة الأولى من الصمت وتحولها إلى ذكرى الرؤية والحلم، وأنا غارق في هذه الثلوج، اعتدلت لاستمر في النوم، انتبهت في تلك اللحظة إلى أن "سابينا" لم تكن في السرير.

بحثت عنها في البيت بلا فائدة: في الغرفة السفلية والمطبخ،غرف أدوات العمل، المخزن، البوابة، حتى الكلبة لم أجدها، لم يكن هناك سوى ظل الخنزير البري المتدلي من دعامة السقف ملطخاً الثلوج البيضاء بخيط من الدم النازف، اكتشفت أمام الباب

آثار الأقدام وهي على وشك الضياع، تتبعها ببطء، كانــت تلتــصق بجدران البيوت، كنت أشعر بندف الثلج تصطدم بعيني، وخوف غير مفهوم ينمو فيهما كالليل، وصلت الآثار حتى بيت "خوان فرانثيسكو"، ثم تنحني بشكل مفاجئ خلف السقيفة وتضيع بين بقايا جدران الكنيسة المهدمة، توقفت عند طرف الشارع وتأملت عزلة الليل الرهيب مــن حولي. أصخت السمع قليلاً، لم يكن يقطع هــذا الــصمت المتنــاهي سوى تنفسي، ضممت الرداء على جسدي لأحمي نفسي من الثلــوج، واصلت السير خلف آثار "سابينا"، حتى قطعت القرية كلها، منتبها في كل خطوة لأدنى حركة، أقف وأسأل الليل في كل خطوة، عبرت بقايا المدرسة وسقيفة "جابين"، بدأت الآثار في الجليد أكثر نظافة وعمقــاً، وعندما اقترب الشك من أن يكون يقيناً، شاهدتها، في أخر الــشارع، على وشك الاختفاء في الطريق، في تلك اللحظة عرفت أننــي لــن أنسى ذلك المشهد أبداً: في وسط الصمت والجليد، بين الخراب وبقايا البيوت، كانت تهيم "سابينا" في القرية، تبدو كطيف أو بخار خيــالي، وتتبعها الكلبة بوداعة تامة.

تكرر هذا في الليالي التالية، في حوالي الخامــسة أو الــسادسة صباحاً، والليل ما يزال يرقد في أحضان الجبال، كانت تترك "سابينا" السرير وتغادر الغرفة في هدوء وتهيم في شوارع القريــة بــصحبة الكلبة، تظل بين الشوارع المغطاة بالوحدة والجليد إلى أن يُلقي النهار أول شعاع له على "أينيلي"، كنت أتصنع النوم عندما أراها تــستيقظ، أتتبع خطواتها عبر النافذة إلى أن يضيع طيفها في نهاية الشارع، ثــم أعود إلى السرير أحاول استعادة النوم المستحيل بلا جدوى، اســتيقظ في الصباح منهكاً من التفكير بحثاً عن سبب لحزن "سابينا"، فأجــدها

في المطبخ، إلى جوار النار من جديد، تتنفس بصوت مسموع بسبب الدخان، تتطلع بعينين جامدتين إلى لا شيء.

بمرور الأيام (خاصة منذ ذلك اليوم الذي حطمت فيه الثلوج حياتنا ببردها اللامتناهي والسماء السائلة) سقطت "سابينا" في البلادة والصمت العميق شيئاً فشيئاً، كانت تمضي الساعات جالسة أمام النار، أو تتأمل الشوارع الخالية عبر النافذة الكبيرة، ولا تكترث بوجودي، أراها تهيم في البيت كشبح، تختلس النظر لانعكاس الضوء واللهب المتراقص الذي لا يعرف طريقاً لإنقاذ تلك النظرة التائهة، وأنا عاجز عن اختراق حاجز الصمت الذي يكاد يقضي على البيت كله، وعلى حضوري نفسه كما لو كانت الكلمات جميعاً قد فقدت معانيها وتعبيراتها، كما لو كان الدخان قد ألقى بيننا حاجزاً لا يُخترق، وحوّلنا إلى وجهين غريبين، كنت أجلس في مواجهتها والثلوج المتساقطة في الخارج ترغمنا على البقاء، أسقط حينئذ في نعاس مظلم وأبله- تغذيه العزلة وعذاب الليل- أو أتطلع مذهولاً لساعات طويلة، أتأمل الغابة المتكلسة التي تشتعل بذكرياتي، وأحياناً يصبح صوت الصمت قوياً وعميقاً، وأصبح غير قادر على احتماله، فأغادر المطبخ إلى الباب بحثاً عن دفء ونظرة الكلبة الأكثر إنسانية.

في الليلة التي ماتت فيها، كانت "سابينا" قد غادرت السرير في وقت مبكر عن المعتاد، كانت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، لم يكن قد مضى أكثر من ساعة على هجوعنا، وأنا غارق في الظلال- أحاول غزو النوم المستعصي- شعرت بالبرد المفاجئ لمكانها الخالي بين الأغطية وخشخشة الملابس وهي تتدثر بها، والخطوات

المكتومة التي تهبط السلم دون أن تحدث ضجة، بعد ذلك، شعرت أيضاً بتقافز الكلبة عند الباب على أثر استيقاظها من النوم، وأنين الباب عندما غادرت "سابينا" البيت، لكن في هذه الليلة لم أتبعها، ولم أنهض كالسابق للتجسس على حركاتها عبر النافذة، في تلك الليلة جمّد قلبي برد مبهم، وقيد حركتي تحت ثقل الأغطية، بينما كان الظلام وقلق الصمت قد عادا يسيطران على البيت، مكثت لساعات طويلة أنصت لاختلاط لغات الصمت البعيد بالجليد، حتى حافة الصباح، وأخيرا انهرت تحت ثقل النعاس والانتظار، وأصبحت كجسد معلق بين الكدر والكابوس الأبدي، احتلت الثلوج المتساقطة بلا انقطاع أسقف وشوارع "أينيلي"، حطمتْ الأبواب ونوافذ البيوت، وزحفتْ شيئاً فشيئاً إلى الحجرات والجدران، وهددت بدفن السرير الذي كنت أرقد فيه تحت وطأة قوى غريبة تمنعني عن الحركة والهروب من ذلك الكابوس الأبدي.

عندما استيقظت، كان الصباح قد أشرق، الضوء البارد الساقط على زجاج النافذة شككني فيه للحظات- بقايا من الثلج والنعاس- لم ينتهك الثلج بعد، وإلا كنت أصبحت تحت رحمته، بينما كنت أغير ملابسي، تأملت الشارع عبر النافذة، كان الثلج قد توقف، لكن ضباباً ثقيلاً متراكماً كان يخيم على الأشجار والأسطح القريبة، ضباب عميق وضاغط يختلط بدخان مدخنة هذا البيت، رغم أن المدفأة كانت مطفأة. لم أجد "سابينا" في أي مكان، خرجت إلى البوابة بحثاً عن الكلبة، لم أجدها، شعرت فجأة كما ولو كان ضوء الصباح قد ضرب حواسي بعنف، وفجر بين يدي عزلة البيت الثقيلة، وتملكني إحساس غريب حوّل الصمت إلى كابوس ونوم الليل إلى هاجس.

في الشارع، كانت الثلوج تتشبث بالحوائط ورطوبة الصقيع المتجمدة تجعل من المستحيل التعرف على أي آثار حديثة، كان الصمت العميق يخيم على القرية، ويدخل لسانه المتوحل الطويل إلى باحات البيوت الغارقة في النسيان، وأكوام السنين، أغلقت الباب من خلفي في هدوء، تحسست ملمس المطواة المألوف في جيبي، حافظت على رتابة تنفسي ونبضي حتى لا ترهقني المسافة، وبدأت في السير في الطريق الذي كانت تقطعه "سابينا" وحيدة كل ليلة، ببطء، كنت أفتح بحواسي طريقاً في الضباب وأغوص في الجليد في كل خطوة، قطعت شوارع القرية شيئاً فشيئاً دون أن أعثر على أي أثر لأي خطوة، بحثت في كل باب، خلف كل زاوية وكل سياج، فتشت كل "أبنيلي"، شارعاً شارعاً، بيتاً بيتاً، دون جدوى كما لو كان الصمت والجليد قد دفناها، كما لو كان شبحها الضامر قد ضاع في الضباب إلى الأبد. رغم ذلك اندفعت لألقي نظرة أخيرة على بقايا الكنيسة، كنت على وشك العودة إلى البيت، لكنني تذكرت فجأة أن هناك مكاناً لم أفتشه بعد.

من بعيد، رأيت الكلبة ترقد في الطريق، كشبح بين الظلال التي يرسمها الضباب، كانت مغطاة بالثلوج في حماية أشجار الحور العارية، بدت كحيوان غريق ألقى به غضب النهر، عبرت الجسر، زدت من سرعة خطواتي منادياً بصوت خفيض، لكنها، بدل من الجري نحوي كالسابق انتفضت في مكانها وتراجعت نحو باب الطاحونة ببطء دون أن تحول نظرها عني للحظة واحدة، تملكني الشك. هل كانت تحاول قيادتي أم كانت تحاول منعي من التقدم، رأيت في عينيها ما حدث- في الزمجرة الغريبة التي واجهتني بها

منذ البداية، فتذكرت خوفها وهي تحرس الخنزير في منتصف الليـــل والثلوج– وما ينتظرني خلف باب الطاحونة، ودون أدنـــى فرصـــة للتفكير اندفعت نحو الباب، وفتحته بركلة واحدة، كانت "سابينا" هناك، تتأرجح ككيس معلق بين الآلات القديمة. عيناهـــا مفتوحتـــان علـــى أقصى اتساعهما، والعنق ملتف حوله الحبل الذي كنتُ قد علقتُ فيـــه الخنزير البري على مدخل الباب في ليلة سابقة.

(3)

كان التذكار الوحيد الذي ما يزال يُذكّرني بها، أحملـه معـي، ملتفاً حول خاصرتي منذ ذلك الوقت، وأرجو أن يبقى معي إلى اليوم الذي يأتون فيه للبحث عني، ويرافقني مع بقية ملابسي حتى القبـر، أما الأشياء الأخرى- الصور والخطابات- ما تزال تنتظر موتي منذ وقت طويل.

في البداية أنزلت الجثة وأنا في ذهول منذ اكتشاف ما حدث، لم أتذكر حتى تحرير رقبتها من المنديل الملتف حولها بشكل خانق، في خارج الطاحونة، حاولت سحبها على الجليد، لكن الحبل كان يعيـق تقدمي، ودون أن أدري، ربطته حول خاصرتي حتى لا يعيقني وأنـا أبذل مجهوداً عنيفاً لسحب جثة "سابينا" حتى البيت.

لم أعد أتذكرها لعدة أيام، فقد أصابني تواصـل الأحـداث بـلا مبالاة طويلة (وصول الرجال من قرية "بيربوسا" المجاورة- الـذين استطعت العثور عليهم بعد ساعـات من السيـر بين الثلـوج والحزن- الصمت الطويل والسهر الليلي وإجـراءات الـدفن تحـت الشعاع البارد القاسي لذلك الصباح) وبعد انتهاء الرجال من مهمـتهم خيّم على البيت صمت رهيب استسلمت له طويلاً قبـل أن انفـضه عني، كنت أجلس طوال النهار والليل جوار النـار، دون أن أتـذكر الطعام أو النوم، لا أتحرك من مكاني، إلا بين وقت وآخـر لإلقـاء نظرة عبر النافذة، على شبح الكلبة الملقاة أمام الباب كخرقة قديمـة. لم انتبه إلى أن الحبل ملتف على خاصرتي، كحزام جاف أو كلعنة.

عندما اكتشفته شعرت بنفس الإحساس الذي يراودني الآن، عاد يهزني من جديد: هذا الجفاف المفاجئ.. السعف القديم الجاف، الذي يخترق الجلد ويجري في الدم، ينزع الذكريات كالكي، نعتقد أحياناً، أن كل شيء قد ذهب إلى النسيان، وأن الصدأ وغبار السنين قد حطم هذا الشيء الذي كنا نثق فيه، لكنه مجرد صوت أو رائحة أو لمسة مفاجئة أو غير متوقعة يمكنها أن تعيد فيضان الذكريات، وتضيء الذاكرة بقوة وسطوع البرق، خاصة أن الذكريات في تلك الليلة تجسدت بلحم ودم، لم تكن مجرد ذكرى، كان تجسداً لصورة ما تزال حية في عيني، كنت أقف إلى جوار السرير في الظلام الدامس، كنت محطماً من التعب والأرق، وقررت أن أواجه العزلة النهائية التي كانت تنتظرني منذ أيام بين أغطية السرير، وفي اللحظة التي كنت أنزع فيها ملابسي، تعثرت يدي في شيء غريب، فشعرت بجفاف الحبل يهزني من أعلى إلى أسفل ويلقي بي على حافة السرير فاقد الوعي.

كانت نيتي تتجه نحو إلقاء الحبل في السهل، لكن عندما هبطت إلى المطبخ كانت النار قد خبت، وحتى يمكن إحراق الحبل كان يجب إشعال النار من حديد، كنتُ متعباً جداً، ولم يكن هناك وقود، فقررت أنه من الأفضل الانتظار حتى اليوم التالي والاحتفاظ بالحبل في أي ركن حتى الصباح، إلى أن أهدأ وأجلس إلى جوار الموقد وأتأمل كيف يتحول الحبل إلى جمرات، لم أجد ركناً للاحتفاظ بالحبل لا في المطبخ ولا في غرفة النوم، وشبح "سابينا" يعود مع الحبل في الليل، يتتبع خطواتي المتخبطة في البيت- كما لو كنت أثق في أن الأرق سوف يلازمني، ولن يدعني التفكير أن ألقي بجسدي على السرير، ما

دام هذا الحبل في البيت، ازدادت عصبيتي كما لو كان الحبل يحترق بين يدي، خرجت إلى الشارع وألقيت به بكل قواي، إلى أبعـد مـا استطعت، ليضيع في الليل، والجليد بعيداً عن البيت.

أتذكر أنني نمت لساعات طويلة، ربما خمسة عشرة أو عشرين ساعة، وربما أكثر من هـذا، وربما أكـون قد نمت لعـدة أيـام- أيام لم أعـد أتذكرها فيمـا بعد، لم تعـد إلى مخيلتي أبداً- وذلـك الشعاع الذي فتحتُ عليه عيني (اعتقدتُ في البداية أنه شعاع الفجـر) لم يكن شعاع صباح اليوم التالي، بل شعاع أيام عدة بعد ذلـك، لـم أعرف ولم أحاول أن أتبين ذلك، ولم يعد الأمر يهمني كثيراً، كل ما أعرفه أنني نمت طويلاً، مر الوقت بطيئاً وثقـيلاً وأبـدياً، وعنـدما استيقظت كان النهار قد حل من جديد.

كانت الكلبة أمام الباب، مقعية في مكانها بلا حركة، لم تغير من وضعها منذ أن شاهدتها آخر مرة، كانت تغوص في الفناء، بـالقرب من الجليد الزاحف إلى جوار سياج الحظيرة، وحافة النافذة الـسفلي، لم تتطلع نحوي عندما شعرتُ بخطواتي تهبط السلم، من المؤكد أنهـا كانت جائعة، لم تتذوق الطعام مثلي منذ أيام، بحثت عن شـيء فـي البيت، فوجدت في أحد الصناديق خبزاً جافاً بفعل البرودة الـشديدة، ألقيت به أمامها، لكن الكلبة نظرت إليه لحظة بلا اهتمـام، ودون أن تتحرك من مكانها، ثم حولت رأسها قليلاً، ومكثت تراقبنـي بـنفس العينين الباردتين المطفأتين، ونفس التعبير الكدر الذي اكتشفته قبـل أيام في عيني "سابينا" المحترقتين بالجليد.

هبط الليل من جديد على "أينيلي"، ذلك الليـل الـذي اخـتلط عليّ في البداية- عندما استيقظتُ أخيراً من نوم طويل وثقيل- ومـا

اعتقدت أنه شعاع الصباح، لم يكن سوى الظلال الأخيرة التي تتبـــدد في الأفق مع حلول الشتاء، شعرت بالبرد، بحثـــت عـــن جـــاروف وفتحت طريقاً في الجليد حتى الحظيرة، لأن الثلوج كانت قد عـــادت للتساقط أثناء نومي- بَرَد يتراكم على البَرَد، وجليد علـــى الجليـــد- كانت الحظيرة ترقد تحت طبقة من الجليد تكاد تصل حتى خاصرتي، حفرت طويلاً حتى تمكنت من فتح الباب والحصول علـــى الحطـــب اللازم لإشعال النار، وتركت الكلبة تدخل إلى المطبخ، وقـــررت أن أمضي ليلة أخرى إلى جوار الموقد، وعند اشتعال النـــار انتـــشرت موجة دافئة رقيقة، غطت المكان، عندها تذكرت الحبل الذي ألقيت به في الليلة الماضية.

صحبت الكلبة وخرجت بالبطارية، كانت ريح قوية تزمجر على الأسطح وتضرب قمم الأشجار بعنف، والسماء مظلمة وحُبلى بثقـــل الليل، لكن بريقاً كثيفاً كان يضيء الشارع ويلقي بشعاعه علـــى كـــل القرية، دست بقوة على الجليد الذي احتمل خطواتي، كـــدت أتجمـــد، بينما الكلبة تتبعني فتغوص في كل خطوة، إلى أن وصلت إلى المكان الذي يمكـــن أن يوجد فيه الحبل- حاولت أن أتـــذكر- لا أعتقـــد أن كانت الكلبة تعرف ما أبحث عنه، لكنها ظلت إلـــى جـــواري فتـــرة طويلة تبحث معي، من حافة الحقل إلى طرف السد، من سياج بيـــت "بوسكوس" إلى ركن الكنيسة، وكل الجانب العلوي من الشارع، أعتقد أن الجليد دفن الحبل بكاملة- شبح "سابينا" كان قد عاد للبحـــث عـــن الحبل وأيقظني من النوم- كان ضوء المصباح ينزلق على الجليد من مكان إلى آخر، دون أن أعثر على ما كنت أبحث عنه، عـــدت إلـــى البيت وحملت الجاروف، رفعت الجليد عن المكان بلا جدوى، أخيراً

حل التعب بجسدي وغرقت في العرق، كانت يداي تحترقان من البرد وجف الهواء في حلقي، قررت أن أعود إلى المطبخ وأنا واثق أنني لن أعود لرؤية الحبل لفترة طويلة.

بعد وقت قصير نسيت ذلك وعدت من بحثنا الخائب في الثلوج، عدت والكلبة إلى جوار النار– عدنا إلى نعاسنا– وثياب الليل ودخان المدفأة مسحا من ذاكرتي شيئاً فشيئاً تلك الذكرى الجافة للحبل الذي يرقد الآن في منتصف الشارع، تحت طبقة سميكة من الجليد والصمت. كان ذلك كافياً لإحساسي بالراحة، فقد كنت أجهل الرعب الذي كان يحوّم حولي في تلك اللحظة، ولم أكن أعرف أن تلك الليلة ستحول حياتي إلى جحيم.

بدأ كل هذا منذ اكتشاف صورة "سابينا" القديمة، كانت هناك دائماً، معلقة على حائط المطبخ، فوق المقعد الذي كانت تجلس دائماً على حافته، والذي يبدو أمامي الآن خالياً ووحيداً، صورة قديمة أصابها الاصفرار– "سابينا" بملابس يوم الأحد، ذلك الفستان الأسود الفقير، ومنديل الخيوط الرمادي على كتفيها، وقرط ليلة الزواج– كان التقطها لنا مصور من "ويسكا" عندما ذهبنا لوداع "كاميلو"، أنا صنعت لها بنفسي إطاراً من الخشب، وعلقتها على الحائط، منذ ذلك الوقت– ثلاثة وعشرون عاماً– وهي معلقة في مكانها، لكن العيون تعتاد على المشهد، وتتمثله شيئاً فشيئاً في عاداتها وأشكالها اليومية، وفي النهاية تحوله إلى ذكرى، لذلك فاجأتني الصورة في تلك الليلة، وانغرست عينا "سابينا" في عيني، كما لو كانت نظراتها تلتقي بنظراتي لأول مرة.

حولت عيني إلى الفناء بعنف، حيث الجـذوع الحزينـة وإلـى جوارها الكلبة تغالب النعاس الرهيب، ولا تشعر بما يدور بين عيني والصورة الساهرة في عزلة الحائط المتربة، لم يكـن هنـاك تغييـر ظاهري لعادات الليالي الأخرى، لم يكن هناك تغيير فـي التركيـب الأليف الذي بلغني سوى ظلال الضوء القلق علـى مـسند المقعـد الخاوي للأبد، كانت عينا "سابينا" تحملقان فيَّ بثبات، وتتابعان عينـي بإلحاح، وقد فاضتنا بالحيوية على الورق القديم.

كان الليل يتقدم ببطء وحضوره المزعج يـزداد أكثـر فـأكثر، ركزت نظراتي على لهب النار، أغلقت عيني محاولاً الإخـلاد إلـى النوم، لكن محاولاتي ذهبت هباء، عينا "سابينا" الصفراوتان تراقباني، وعزلتهما القديمة تنتشر على الحائط كقبعة رطبة، عرفت على الفور أن ساعات الهدوء والنوم القديمة صارت مستحيلة مـا دامـت هـذه الصورة القديمة موجودة أمامي.

استيقظتْ الكلبة منزعجة وظلتْ تحملق فيّ دون أن تفهم شـيئاً، وقفتُ إلى جوار المقعد وقد أصابني الارتباك والعصبية، كنت مقـدماً على التخلص من هذا الوضع، وذكـرى الحبـل القريبـة تـدفعني، والخوف من الجنون والعزلة بدآ في السيطرة على جسدي، أمـسكت بالصورة بين يدي ونظرت إليها مرة أخرى. "سابينا" تبتـسم بحـزن كبير، عيناها تتطلعان إليّ كما لو كانتا قادرتين على الحيـاة، وفـي أقصى هذا الفراغ تملكت عزلتها من قلبي. أعـرف أن أحـداً لـن يصدقني، لكن عندما كانت تذوب بين اللهيب، كـان صـوتها الـذي أعرفه جيداً، يناديني باسمي وعيناها تنظـران بتـضرع وتطلبـان المغفرة.

خرجت من المطبخ وقد تملكني الرعب، أغلقت الباب من خلفي، وانغرستُ في الظلال فاجتاحني برد غريب، كان البيت بارداً، ومعبقاً بالخوف المترسب بالصمت والرطوبة، توقفت في منتصف الممر، كان صدي اللهيب قد توقف، لكن الصوت كان يتردد إلى جواري من جديد، نظرت حولي وقد أربكني الرعب، كان الظلام دامساً، يضغط على عيني كاللعنة، وعرق بارد يسيل على وجهي، وشلت يدي رعشة قوية. تحملق "سابينا" فيّ من جديد، كانت هناك في عمق الحائط إلى جوار نتيجة حائطية قديمة تجلس على يمين المقعد، في صورة قديمة تجمعنا معاً، ودون أن أفكر في الأمر نزعت الصورة من مكانها وطوحت بها على السلم باتجاه غرفة النوم، فقد كان عليّ أن أتحرك بسرعة لمواجهة الموقف.

فتشتُ كل شيء: الصناديق، الأدراج، الدواليب، الغرف والصالون، ودولاب الملابس، المطبخ، لم أترك شيئاً دون أن أفتشه، وجمعت كل حاجياتها– الصور، الخطابات والأقراط، خاتم الزواج، حتى بعض الملابس، وتذكارات العائلة– كومتها في منتصف الممر، كل ما يمكن أن يطيل حضورها في البيت، كل ما يغذي روحها وسحبها من حولي، وعندما هبطت الدرج كان هناك هواء جاف يرفرف في كل البيت، يضرب النوافذ والبواب دون توقف.

أوقفني الليل في منتصف الشارع، كانت الليلة هي كما كانت قبل ساعات قليلة، وإن كانت قد تقاطعت مع حنقي، وقفتُ جامداً في وسط الجليد، تنفستُ الهواء البارد بعمق، تركتُ نفسي لبرودته الصافية، بعد ذلك تقدمتُ ببطء، مستعيداً تنفسي وحيويتي ابتعدتُ ببطء، متجهاً بعيداً عن البيت، عبر الطريق الذي حفرتُه في الجليد

منذ قليل، بحثتُ عن باب الكرم الصغير، فتحتــه بجهــد كبيــر، لأن الجليد كان يغطي المزلاج الذي تجمد تحت طبقة من الجليد الأســود بسبب الرطوبة والصدأ، أخيراً تمكنتُ من الدخول، تأملــتُ الحــائط القديم، عزلة البئر، الأشجار الساكنة كالأشباح المصطفة في منتصف الثلوج، بحثتُ عن مكان قريب من الحائط، وبعد أن أزلــت الجليــد بالجاروف بدأت التنقيب، وتأكد حدسي فقــد كانــت الأرض صــلدة وحذرة بسبب الصقيع والعزلة، كان الجاروف يضرب الأرض ويعود دون أن يترك فيها أثراً. كما لو كان يضرب في حجــر أو عــصب نباتي لأحد الجذور. مكثتُ أنقبُ ما يقرب من نصف الــساعة. وأنـــا أحمل المصباح في فمي والعرق يجمد وجهي، إلى أن استطعت فـــي النهاية من شق حفرة كافية للحقيبة التي وضعت فيها أشياء وذكريات "سابينا"، كانت حقيبة خشبية قديمة مطعمة بالصفيح صنعها لي أبـــي عندما ذهبت لأداء الخدمة العسكرية، ومنذ ذلك الوقت وهي ترافقنـــي إلى كل مكان، والآن ستكون رفيقتها هي، ستكونان وحيدتان تحــت الأرض، في رحلتهما الأخيرة نحو الأبدية.

عندما عدتُ إلى البيت كان الصباح قد أشرق، وشـــعاع بـــارد يذوب كالرصاص بين الضباب، وبريق ضوء شاحب يضيء المطبخ والممر بنعومة، كل شيء في البيت يخيم عليه الهدوء والصمت مرة أخرى، حتى النار خبت وتحولت إلى دائـــرة خفيفـــة مـــن الجمـــر الأصفر، والكلبة تغالب النعاس بلذته المعروفة، اذكر عنــد دخـــولي المطبخ، ألقيت نظرة غير مقصودة على نتيجة الحائط، لو لم تخنـــي الذاكرة فإن تلك الليلة كانت الليلة الأخيرة للعام 1961.

إن لم تخني الذاكرة يكون هذا العام الذي نمر بــه هــو العــام 1961، نعم إن لم تخني الذاكرة، ثم ما الغريب في هذا، ما الــذاكرة إلا كذبة كبرى، كيف أستطيع أن أتأكد من أن تلك الليلة كانت الليلــة الأخيرة في العام 1961، أو أن حقيبة أبي الخشبية القديمــة تــتعفن تحت كومة كبيرة من نبات "الاورتيجا"؟ ولم لا؟ ألا تكون "سابينا" قد أخذت في رحيلها كل الخطابات والصور، ربما كان ذلك بعيداً عــن ذاكرتي، وما كنت أتخيل أن هذا يمكن أن يتــسع لــه ذلــك الــزمن الخاوي، حقيقة ما كنت أتخيل ذلك، لقد كنت أكذب على نفسي طوال هذا الزمن.

أرى الآن سطح بيت "بوسكوس" ينعكس على القمر، الليل يمحو ما عداه، النافذة ودعامات السرير، لكني أشعر بحضور جسدي– إنه ألم الدخان في الرئتين وتحت الصدر– لكن عينيّ تريان فقط ســطح "بوسكوس" ينعكس على القمر، ترى هل ما أراه حقيقــة؟ ألا يكــون ذلك من قبيل الأحــلام، الحلــم بالأمــاكن، والأشــخاص، وربمــا بالمجهول؟ ألا تكون تلك ذكرى السطح القديم الذي يشبه العديد مــن أسطح "أينيلي"، ربما يكون هذا السطح قد أنهار منذ سنوات.

حقيقة أن العزلة وضعتني مع نفسي وجهاً لوجه، كان ذلــك رداً على حوائط النسيان التي أقمتها فوق ذكرياتي، لا شيء يبعث الرعب في الإنسان مثل إنسان آخر– خاصة إذا كان هذا الإنسان هو نفسه–

وهذه كانت طريقتي الوحيدة الحياة وسط الخراب والموت، الإمكانيـــة الوحيدة لاحتمال العزلة والخوف من الجنون، اذكر عندما كنت طفلاً، كنت استمع إلى حكايات أبي عن أحداث زمن آخر، عـــن أجـــدادي وشيوخ القرية الذين يجلسون حول النار، وتفكيري في أنهم كانوا في هذه الحياة قـــبـــل أن أولد يحنقني ويصيبني بالكآبة، كنـــت اســـتمع إليهم دون أن يراني أحد– أجلس على مقعد في أحد الأركان– استمع إليهم إلى أن يغلبني النعاس وأحوّل حكاياتهم إلى ذكريات خاصة بي، أتخيل الأماكن والأشخاص الذين يتحدثون عنهم، أعطيهم ملامحهـــم كما أريد، تماما كرسم مشهد لأمنية أو تفكير، أشكل ذكريـــاتي بهـــذه الطريقة لتكون موازية لذكرياتهم، وعندما ماتت "ســـابينا"، أجبرتنـــي العزلة أن أفعل ذلك مرة أخرى، توقف مجرى حياتي فجأة كنهر فقد ماءه، ولم يعد أمامي سوى الخلاء الواسع المُدمر بالموت والخريـــف الأبدي الذي يعيش فيه الإنسان والأشجار بلا دمـــاء، ويخـــيم عليـــه المطر الأصفر والنسيان.

منذ ذلك اليوم كانت الذاكرة هي السبب الوحيد والهدف الوحيـــد أحياناً، مُهمل في أحد الأركان في زمن متوقف، كساعة رملية توضع بالمقلوب، فتجري الرمال بالاتجاه المعاكس للاتجاه الذي كانت تجري فيه من قبل، لا؟ إنني أشعر بالرعب من اقتـــراب الـــشيخوخة التـــي كانت الهاجس الوحيد الذي قاومته لزمن طويل، لم أتذكر تلك الساعة القديمة المهملة في أحد الأركان، أو معلقة في ركن المطبخ بلا فائدة، فقد اختلط الزمن بالذاكرة والأشياء الأخرى– البيت، القرية، السماء، الجبال– لقد فقد الزمن وجوده عدا ذكرى بعيدة.

كانت تلك بداية النهاية، بداية الوداع الطويل اللانهـائي، الـذي حوّل حياتي فأصبحت كضوء الشمس عندما تفتح النافذة بعد سـنوات طويلة، فتُفجرُ الظلام وتنزعُ الأشياء والعواطف مـن تحـت تـراب النسيان، لقد دخل الاحساس بالعزلة إلى قلبي وأضاء كل ركـن فيـه بقوة، كل تجويف في ذاكرتي، كرياح فرنسا التي تأتي فجـأة، تـدفع الأوراق والخرق في الشوارع، وتضرب الأبواب، وتخـبط بعنـف أبواب الغرف الداخلية في البيوت، لقد حطم الزمن جدران النـسيان ودخل بين بقاياها طاردا منها الأوراق والذكريات القديمة، كان النبش النهائي لكل ما حلمت به وعشته، بداية رحلة بلا عودة نحو الماضي الذي لن ينتهي إلا بنهايتي، لكن كما تُولد الكلمـات وتخلـق حولهـا الصمت والغموض، الذكريات أيضا تترك حولها غيـوم الـضباب، سحاب ضبابي ثقيل ومتغير، ينشر حولها جنـون الـسنين ويحـوّل الذاكرة إلى مشهد شبحي غريب، لقد تنبهتُ فجأة إلى أن كل شيء لن يعود إلى ما كان من قبل وأن ذكرياتي ما هي إلا انعكاس مـرتعش لنفسها، وإن وفائي لذاكرة ممزقة بين الضباب والخراب سينتهي على المدى الطويل إلى شكل جديد للخيانة.

عشت مُعرِضاً عن نفسي، لم أكن أنا الذيَ يجلس إلـى جـوار النار، أو الذي يهيم في القرية ككلب وحيد بلا صاحب، لم أكـن أنـا الذي ينام كل ليلة في هذا السرير، ويظل صامتاً، منـصتاً لـصوت المطر حتى الصباح، كانت ذكراي طوال تلك السنوات هي التي تهيم في القرية، وتجلس إلى جوار النار، شبحي هو الذي يرقد في السرير كل ليلة ويظل صامتاً ينصت للمطر ولتنفسي، أرى الآن قدوم آخـر ليلة لي، والزمن ينتهي وذاكرتي تنداح، كالأرض التي تنداح تحـت

الشمس بعد شتاء طويل، افتح عيني مرة أخرى، انظر فلا أجد سوى هذا الألم الذي يسكن صدري، يعشش في رئتي، وأرى وضوح النافذة الرمادي المطموس، بجانب السرير، والدائرة الصفراء للقمر المشذب، هناك في البعيد على سطح بيت "بوسكوس".

(5)

السطح والقمر، النافذة والريح، ماذا سيبقى من كل هذا بعد موتي، أنا الآن أنازع الموت، وعندما يعثر الرجال عليّ ويغمضون عيني للأبد، تُرى تحت بصر من ستبقى هذه الأشياء؟

إذا لم يكن القمر قد أحرق الخريف، سأظن أنه قمر ليلة نهاية السنة، وإذا لم يحرق القمر عيني، ربما تكون حياتي منذ تلك اللحظة، مجرد حلم، حلم أبيض، محموم قلق، لغم تحت تلك الأغطية، والجنون الكامل لذلك الشتاء الأول، إنه الحلم الأبيض المحموم القلق، لا يقطعه سوى نباح الكلبة، كما فعلتْ يوم نهاية الجليد.

النافذة والقمر اتحدا في إطار واحد، أضاءا كالعادة تلك الذكرى الأولى، ليلة من ليالي أول مارس، في صباح قريب من عيد "سان خوسيه" (القديس يوسف) تضرب الريح النافذة، وتنبح الكلبة القمر وتناديني من الحلم، حدث هذا منذ زمن، رغم أن الهواء كان يمكنه الحدس بموت الشتاء. واهتزازات ولادة البذور في الغابة، تنز من الأرض رطوبة داكنة وتنتشر ببطء في الشوارع والحقول، قلق لذيذ يخترق قلب وعيون الكلبة وهي لا تزال مقعية في مكانها المعتاد أمام الباب، عندما دخلت السرير بعد يوم محترق إلى جوار النار، مر وقت طويل قبل أن يغالبني النعاس بين ذكريات فصول الربيع المنسية البعيدة، استيقظت فجر تلك الليلة على صوت نباح الكلبة، وعرفت أن الشتاء قد ولى، وأنني لن أعود للنوم مرة أخرى.

مكثت ساكناً في السرير لوقت طويل، وفي صمت كما أنا الآن، كان الليل هادئاً، ونائماً تحت الجليد، مضاء بقمر بارد شفاف، ظاهرياً لم يكن هناك شيء غريب يميز هذه الليلة عن أي ليلة أخرى، عدا نباح الكلبة، مازال كل شيء من حولي كما كان من قبل، صمت القرية، النافذة المفتوحة، ظِل سطح "بيسكوس"، صقيع على النافذة الزجاجية. وكلما ازداد لمعان الصباح كان القمر يختفي كالدخان بين الصقيع، بدأ حفيف داكن يلف البيت، ويطوف بالقرية حفيف أرضي، وشلال مياه تُولد تحت الجليد، وتجري ببطء شديد فوق الأسطح وفي الشوارع، لكن عندما استطاع الضوء أن يحطم الليل الطويل، خاصة بعد انعكاس أول شعاع للشمس على قمم الجبال- بعد غياب طويل- تحلل الدم وتبخرت النافذة، تحوّل الحفيف بسرعة إلى إعصار مدمر داكن، كان النهر ثلوجاً منداحة وجليداً يذوب على الطرقات التي تصل إلى "أينيلي". كانت المياه تعلن موت الشتاء، وعودة شمس الحياة بعد شهور من الدفن تحت الجليد.

لا يمكن أن أنسى تلك اللحظة أبداً، انتظرتها طويلاً، تخيلتها وانتظرتها مرات عديدة طوال ذلك الشتاء الرهيب. وعندما حانت تلك اللحظات، كنت على وشك الاعتقاد بأنها ليست أكثر من حلم، وصلت سمعي خطوات "سابينا" في المطبخ، وصوت أبي المعروف وهو يتحدث مع "بيسكوس" أمام الباب، هذه اللحظة لم تكن سوى حلماً. كان صَوت الماء في الخارج، وبخار الشمس الذي يطبع زجاج النافذة بلون الدم. كنت يقظاً كما أنا الآن، وكما كنت قبل سنوات، الجليد وصمت النافذة مازالا يلفان الغرفة، الجليد المتراكم بالسطح يحوّل عيني إلى حديد، تُرى كم من الزمن مرّ منذ تلك اللحظة؟ كم

من الزمن والحديد المتراكم في عظامي؟ لكن هناك صوراً تجعل العيون مفتوحة كالزجاج الشفاف، تحتفظ بالطزاجة الأولى، كما لو كانت العيون مجرد مرآة تعكس المشهد، والنظرة هي الانعكاس الوحيد للعين.

في ذلك اليوم، كنت بعيداً عن ذلك الجنون القديم استعيد اليوم ذكراها ليوم مختلف عن تلك الأيام، رغم مرور السنوات، فيما كنت ارتدي ملابسي شعرت بذلك الإحساس الغريب الذي اجتاحني في الأيام السابقة عندما اكتشفت معنى نظرات الكلبة، حتى أنني لم أتوقف لإشعال المدفأة كما اعتدت في الأيام السابقة. لم أنتبه للبرد الذي كان لا يزال يعض الأبواب والشوارع، أو الرطوبة التي تبلل حذائي وروحي ببطء. همت في القرية كمن نجا من الغرق، ثم اقتسمت مع الكلبة بقايا العشاء، أشعلت السيجارة التي بذلت جهداً كبيراً للاحتفاظ بها لهذه المناسبة– كان التبغ قد نفذ مني منذ ما يقرب من أسبوعين– جلست في الممر أتأمل انتصار الشمس على الشتاء.

كان الثلج قد ذاب في أيام قليلة، وحطم في ذوبانه المنحدرات، وغمر الشوارع بالطين المتراكم، وبدأت البيوت تُظهر عريها وأجزاءها المحطمة، كانت "أينيلي" قد استعادت تحت غطاء الجليد شكل الأزمنة السابقة، لكن الآن كشفت الشمس عن آثار ضراوة اعتداء الشتاء على كثير من البيوت، بعضها عضته الريح، وأصابت جدرانها وأسقفها بالتشققات، وبيوت أخرى أقدم، أعلنت هزيمتها النهائية– مثل بيت "خوان فرانثيسكو" وحظائر "آسين" و"سانتياجو"– التي ترقد الآن في الأرض بعد أن تحولت إلى كومة من الحجارة، والأخشاب المتعفنة بفعل الجليد، أهيم بينها وأتذكر أصحابها، أدخل

أبوابها التي غزاها العليق، أدخل مطابخها وحجراتها كجنرال مجنون يعود وحيداً إلى الخنادق التي تركها جنوده أو ماتوا فيها.

في صباح أحد الأيام، كشفت الشمس عن شبح "سابينا" تحت التراب، الكلبة وأنا، كنا قد عدنا من الجبل بعد أن وضعنا الأفخاخ تحت الجليد (عثرنا في البحيرة على كلبين ماتا من أثر هجوم الذئاب عليها، وبقايا ماعز) عندما اقتربنا من البيت توقفت الكلبة فجأة، أصابها الشلل في منتصف الشارع، وبدأت في النباح، كانت عصبية وخائفة، كما لو كانت قد اكتشفت بين الأسيجة ثعباناً، نسيت منذ تلك الليلة– الليلة الطويلة التي أصابتني بالجنون لأول مرة– أن السلام عاد إلى النار والبيت، وأن شبح الحبل قد ضاع من الذاكرة، لكن الشبح عاد من جديد، ظهرت أطرافه كجذر بين جذور العليق، لكن مشهده لم يؤثر فيّ بذلك الإحساس بالامتعاض الذي أصابني، رأيت في تلك الليلة الحبل كتلك البقايا التي خلفها الشتاء الأخير، غسلته في الجليد بلا خوف، ثم جففته في ملابسي دون أن أشعر بجفاف ملمسه الذي حوّل حياتي إلى جحيم، وبعد أن عدت إلى البيت ربطته في خاصرتي– كما لو كان الزمن يكرر نفسه– قررت أنه لن يتركني مرة أخرى، لأنه كان روح "سابينا" الهائمة.

في صباح اليوم التالي، هبطتُ إلى قرية "بيسكاس"، والحبل حول خاصرتي، عندما غادرت "أينيلي" كان الليل لا يزال يخيم عليها، كان الطريق غارقاً في الوحل، وأنا تحت ثقل الجلود التي كنت أريد مقايضتها بالتبغ وبعض البذور، ثم أذهب بعدها إلى "بيسكوس" للاتفاق على مقابل رعي القطيع هذا الربيع، كان هناك بعض الجليد في مدخل القرية، وريح باردة تهبط من بعض القمم

الجبلية، درت حول "بيربوسا"، واقتربت من البيوت والدخان والناس والشوارع، أصابني الرعب– كان الصباح قد أشـرق منـذ بعـض الوقت– قبيل دخولي القرية تركت الشارع الرئيسي، ابتعـدت عـن الحقول ككلب أجرب– تذكرت حنيني لتلك الأيام الماضية بين أهـل "أينيلي". كنا نهبط جماعات، نغني سعداء في الطريق، لأننا لا زلنـا على قيد الحياة بعد غضب الشتاء الأخير.

أنا الآن الباقي الوحيد– والأخير– تندهش الناس فـي شـوارع "بيسكاس" لرؤيتي مرة أخرى، كان موت "سابينا" قد أثارهم، واعتقدوا أنني لحقت بها في هذا الشتاء الطويل، لم أحادث أحداً، تركت الجلود في الحانوت مقابل الدخان والبذور– أذكر أن النقـود كانـت كافيـة لشراء بعض الزيت– صعدت إلى بيت "بيسكوس" دون أن أتوقف في المقهى كما كنت أفعل من قبل، لقد اشتقت إلى العودة إلى "أينيلي".

كان العجوز "بيسكوس" قد مات في ذلك الشتاء. لم يحتمل الحياة مثل "سابينا"، أخبرتني ابنته بذلك وهي تمسح دموعها، وتبحث عـن رسالة لي وصلت منذ أشهر عديدة، مـسكين "بيـسكوس"، مازلـت أذكره، يجلس أمام الباب تحت شعاع القمر الذي عاد يلـوّح لعينـي، كان أول من غادر "أينيلي"، له تسعة أولاد وأرض قليلـة لا تكفـيهم الحاجة، وبعد الحرب هبط إلى "بيسكاس" للعمل في مـصنع الحديـد والصلب، منذ ذلك الوقت وأنا أرعى له أغنامه في الجبـال طـوال الربيع، أتقاضى ألف بيزيته إضافة إلى نصف مواليد الأغنـام، لكـن بعد موته، باع أولاده الأغنام، لم يبق منها شـيء، أخـذت الرسـالة وودعت الابنة في صمت وأنا واثق أنني لن أعود لرؤيتها بعد ذلـك أبداً.

لم أفتح الرسالة إلا بعد ابتعادي بمسافة كافية، وأنا في طريقي إلى "أينيلي" تذكرت أن النسيم كان يهب على السهل، أمضيت وقتاً طويلاً قبل أن أكمل الرسالة، كانت من ابني "أندريس"، وهي الرسالة الأولى التي تصلني منه منذ سنوات، ربما منذ رحيله، كنت على وشك أن أنساه، كان "أندريس" قد تزوج ويعيش في ألمانيا، ومع الرسالة صورة تجمعه وزوجته وطفليه على شاطئ البحر، وتحمل إهداءً لأمه.

(6)

بالطبع لم أرد على الرسالة، ما الذي يمكن أن أكتبه لـــه؟ هـــل أقول له أن أمه ماتت وأنني أعيش بين الجليد والخراب كشبح وحيد؟ أن أطلب منه أن ينسى أسماء أبويه والقرية التي وُلِد فيها؟

أعتقد أنه كان يعرف كل هذا. وأن الإجابة معروفة له، لم يكلف نفسه بالسؤال عنا سنوات طويلة، لقد كتب هذه الرسالة وهو يعـــرف أنه لن يتلقى عنها رداً، فالزمن كفيل بمحو الجراح، الـــزمن مطـــر أصفر صبور يخمد أعتى النيران في هدوء. لكن هناك نيراناً تظـــل مشتعلة تحت الأرض وشقوقاً جافة وعميقة جداً في الذاكرة، لا يمكن محوها ولا حتى بالموت، فيحاول الإنسان أن يتعايش معها، ويتراكم الصمت والصدأ على الذاكرة، وعندما يعتقد أن كل شيء قد انتهـــى فإن رسالة أو صورة يمكن أن تفجر وتمزق طبقة الجليد التي تغطي الذاكرة.

عندما سافر "أندريس" بكته أمه كما لو كان قد مات، بكته كمـــا بكت "سارة"، بكته وانتظرته حتى لحظة موتهـــا، فعلـــت مـــا فعلـــه "كاميلو"، أما أنا، فلم أكلف نفسي جهد الخروج من السرير لوداعه.

كان ذلك في أحد أيام فبراير عام تسعة وأربعين، كـــان يومـــاً بارداً ورمادياً، لا يمكن أن أنساه أبداً، أخبرني "أندريس" بأمر رحيله في المساء، في الحقيقة كان قد أخبرنا في السنة الأخيرة بعزمه على الرحيل عدة مرات، لكن نظرة حزينة وغريبة في صوته أكدت أنـــه

قرار نهائي، لم نجبه، اختبأت "سابينا" في إحدى الغرف لتبكي، بينما بقيتُ أنا ساكناً إلى جوار النار دون أن أنظر إليه، كما لــو كنــت لا أسمعه. كان يعرف ما أفكر فيه، كنت أخبرته برأيي من أول مرة، لو غادر "أينيلي"، لو غادرنا، وغادر مصيره هنا، لن يعود أبــداً، لــن يدخل هذا البيت الذي بناه جده بكده وتضحياته، ولن يكون أبني أبداً.

لم نسطع النوم في تلك الليلة، ليلة لا تُنسى، قضيناها ســاهرين، لم نتبادل الحديث، كنا نستمع إلى نحيب المطر على زجاج النافــذة، نُحصي الساعات التي تبقت على بزوغ اليــوم الجديــد، اســتيقظت "سابينا" قبل طلوع النهار، وأوقدت النار لتعد الطعام لــــ"أنــدريس" (بينما كنت و"أندريس" نتناول الطعام، كانت أمه تعــد لــه الحقيبــة) مكثت أنا في السرير، أغوص في الظل، أنصت لصوت المطر على الزجاج، وخطوات "سابينا" في المطبخ، سمعت بعــد قليــل صــوت خطوات على الدرج، كان يخيم على البيت صمت غريب، صمت لم أتذكره منذ سنوات عندما بقيت وحيداً بعد موت "سابينا"، لقد مكثــت في السرير لفترة من الوقت.

(لو عاد "أندريس"، لوجدني في نفس الوضع) دققت فــي ذلــك الصمت محاولاً التعرف على ما يحدث في المطبخ، لم أسمع شــيئاً، سوى همهمات غامضة تأتي عبر الحوائط ما بين وقت وآخر، خمنت أن "سابينا" كانت تعطي نصائحها الأخيرة لــ"أندريس"، نصائح أخيرة عبر العواطف والدموع التي تشبه التضرع: أكتب لنا، لا تهــتم بمــا قاله، عليك أن تنسى ذلك، وعد وقت ما تشاء.

رحيل "أندريس"، أعاد ذكرى "سارة" و"كامليو"، تــرك رحيلــه فراغاً كبيراً في البيت، رغم أن اسمه لم يُذكر بعد ذلك أبداً، ولم يعــد

أي شيء كما كان منذ ذلك الوقت، هذا أمـــر طبيعـــي، لأن رحيـــل "أندريس" لم يكن رحيل ابن فقط، مع "أندريس" رحلت آخر إمكانيـــة لاستمرار الحياة في هذا البيت، الأمل الوحيد في المساعدة والرفقـــة، "سابينا" وأنا كنا نعرف أن ساعتنا قد اقتربت، لـــذلك عنـــدما أغلـــق "أندريس" الباب خلفه، وابتعد تحت مطر ذلـــك الفجـــر فـــي هـــدوء وصمت، متخذاً طريق المهربين القديم، عاد شبحاً "سارة" و"كـــاميلو" إلى البيت ليملأ الفراغ الذي تركه "أندريس".

في الحقيقة شبح "كاميلو" لم يغادر البيت أبداً، كـــان يهـــيم بـــين الغرف في ليالي الشتاء، يحترق بين الأخشاب ناشراً أنفاســـه بيننـــا، حاولنا قبول ما أنكره الموت لسنوات طويلة، حاولنا أن ندير ظهرنـــا للذكريات وخيبة الأمل، لكن من الصعوبة بمكان التعايش مع شـــبح، من الصعب جداً محو آثار الماضي من الذاكرة، عندما يكون الـــشك غذاء للرغبة ويتراكم الأمل على الأفكار، فالموت له أشكاله: المقبرة، الكلمات، الزهور التي تمنح الذكرى ملامحها، والوعي الواضح بـــأن ما حدث لن يعود، فيتحول الغياب إلى عادة جديدة، أما الاختفاء فـــإن ملامحه غير واضحة، ليس له حدود أو وجود، إنـــه الإنكـــار لهـــذا الوجود.

في البداية، لم نتقبل ذلك الصمت الذي امتد عبر الزمن، أنكرت "سابينا" قبول الواقع، إلى يوم موتها، وإن لم تعلن ذلك، إلا أنها ظلت تنتظر معجزة إلى يوم موتها، لكن المعجزة كانت مـــستحيلة، انتهـــت الحرب ومرت الأيام والشهور دون أنباء جديدة، وحـــل الاستـــسلام محل الأمل وجنون الغياب، "كاميلو" لم يعد، ولم يظهر اسمه أبداً في قائمة الموتى الرسمية، لكن شبحه عاد إلى البيت، واختلط بالأشـــباح

التي كانت تسكن الغرف بينما كان جسده يتحلل في مقبـــرة جماعيـــة مجهولة في قرية ما من قرى إسبانيا.

كان من المنطقي أن يعود "كاميلو"، ليحل محل شقيقه بعد كـــل هذه السنوات، كان هو الوريث الوحيد والأول، كـــان هـــو المؤهـــل الأول لوراثة مكاني بسبب علاقة الدم والعادة، كان يجـــب أن يأخـــذ مكاني أمام باب البيت يوم أن أموت.

وها هو يعود الآن من أعماق الليل والنسيان والسنوات، يعـــود كطيف قديم يلبي النداء.

ما لم أكن أتوقعه هو أن يعود شبح "سارة"، كان قد مضى على موتها زمن طويل، مرت سنوات بعد أن توقف تنفسها الشاق القلـــق، كنت قد أوشكت على نسيانها، مع ذلك في إحدى الأمسيات، بعد أيـــام قليلة من رحيل "أندريس"، رأيت "سابينا" تخرج من المقابر، لم تنتبـــه إلى وجودي، كنت قادماً من الجبل بعد حبس الأغنام، انتظرتُ بـــين الأشجار إلى أن ابتعدت، واقتربتُ ببطء وألقيتُ نظـــرة مـــن أعلـــى السياج، فاكتشفت السبب الغريب لتلك الزيارة، هناك في ركن مظلـــم إلى جوار السياج القديم المدفون تحت الرطوبة وحشائش الأورتيجـــا، كان شاهد "سارة" قد برز من بين العليق، وقد غطته زهور جديدة بعد كل هذه السنوات.

لم أتحدث مع "سابينا" في هذا الموضوع، وظلت هـــي تـــزور المقابر أسبوعياً، احتفظت أنا بالسر الذي تناقله سكان "أبنيلي" بصوت منخفض، لكن في إحدى الليالي سمعتُ نداء "سارة"، أتذكر أن الوقت كان فجراً، استيقظت منزعجاً دون سبب واضح، كانت ليلة صـــافية، النسيم يخترق أوراق البلوط، والقمر يضيء النافذة بضعف، ســـمعتُ

نحيباً رتيباً، غير مفهوم، بدأ كتنفس متقطع، دققت النظر في "سابينا"، كانت نائمة إلى جواري في سكون كشبح هادئ بين الأغطية، لم تكن هي التي تتنفس بهذه الطريقة الغريبة.

كان من المستحيل أن أخمن شيئاً في تلك اللحظة، لكنـــي حتـــى هذا الوقت كنت بعيداً عن ما كان يخبئه لي القدر، قمت من الـــسرير بهدوء- حتى لا أوقظ "سابينا" أو أزعجها- غـــادرت الغرفـــة وأنـــا مصمم على اكتشاف السبب، ومصدر هذا الصوت الغريـــب، كـــان الظلام في الممر قد خدعني للحظات، كنتُ أسمع ذلك التنفس المتقطع بوضوح، لم يكن هناك شك في أنني أسمع تنفساً متقطعاً- اعتقدتُ في البداية أنه يأتي من نهاية الدرج، قلت أنه ربما يتعلق بكلب بقي داخل البيت دون أن ننتبه له، عندما وصلت نهاية الـــدرَج، مـــررت أمـــام الغرفة التي كنت أغلقت بابها بالمزلاج منذ عشرين عاماً، انتبهت إلى أنني كنت مخطئاً، الصوت لا يأتي من السلالم، وليس في البيت كلـــه أي كلب، الصوت يأتي من هناك، من خلف هذا الباب، من الغرفـــة الصغيرة، حيث احتضرتْ وماتتْ "سارة" منذ عشرين عاماً.

وقفتُ َمشلولاً لبعض الثواني، وقفتُ كشجرة ساكنة، شعرتُ أن الموت يخترق جدران البيت، ويخدش الأبواب، يمزق الريح ويخترق روحي، اجتاحني هذا الإحساس لثوان قليلة، لحظات قليلة، لكنه كـــان وقتاً كافياً لاستجماع قوتي بعد المفاجأة، وأن أتراجع في الممـــر دون أن أتجاسر على فتح الباب، ولا أن أدير ظهري، كان التنفس المتقطع قد اخترق ذاكرتي كنصل من حديد، وحرك تلك الذكريات الخانقـــة، كان هذا النحيب المختنق المتواصل هو الذي قضى على جسد "سارة" ببطء، وقبل أنَ يتوقف قبل عشرة شهور، كان ذلك في صباح اليـــوم الذي أكملتْ فيه أربع سنواتَ من عمرها.

تكرر هذا عدة مرات طوال هذه السنوات، كما حدث فـــي تلـــك الليلة، حلم غريب يوقظني بعنف، وما أن استيقظ حتى أوقن أنها في البيت وتناديني، لم أتجاسر أبدا على الاقتراب من ذلـــك البـــاب، ولا حتى مغادرة السرير في منتصف الليل. لم أعرف أبـــداً أن "ســـابينا" سمعت هذا التنفس المتقطع في يوم ما، لكنها ظلت تـــزور المقبـــرة وتضع عليها زهوراً كل أسبوع تقريباً، إلى اليوم الذي ساعدني فيـــه رجال "بيربوسا" على حملها إلى جوار "سارة" إلى الأبد.

لهذا لم أكتب رداً على خطابات "أندريس"، ولم أغفر له أبداً، لقد هجرنا، وهجر أخوته، ولهذا السبب مزقتُ رســـالته وصـــورته فـــي الشارع، وألقيت بقاياها فى نافورة "سانتا أوروسيا"، لتتعفن في أعماق المياه ببطء كما تتعفن الذكريات في مستنقع الزمن.

(7)

مرت تلك السنة ببطء أكثر من المعتاد، في الحقيقة، كل السنين مرت بنفس الطريقة، منذ السنة الأولى: كل مرة تكون أكثر بطئاً ورتابة، كل مرة محملة بالخراب أكثر من ذي قبل، كما لو كان الزمن قد تجمد فجأة، ونهر الأيام القديم، قد توقف تحت الجليد محوّلاً حياتي إلى شتاء أبدي، وعندما أنظر خلفي بحثاً عن الأمسيات البعيدة، أحرك في ذاكرتي أوراق الصمت، لا أجد غير غابة مدفونة محاها الضباب، وقرية مهجورة تعبرها الذكريات كأشواك تدفعها الريح.

منذ تلك السنة لم أعد إلى الجبال مرة أخرى، عندما مات "بيسكوس" باع أبناؤه القطيع وحط الخراب كوحش على مراعي وسفوح "أينيلي"، كان يمكنني أن أجد قطيعاً آخر بسهولة، في "بروتو" أو "سانتياجو" أو "بيسكاس"، لكني شعرت بالتعب والشيخوخة، لم تعد لديّ القدرة ولا الرغبة في قضاء عام آخر خلف قطيع لمالك آخر، على أية حال لم يعد لدي مَنْ أعمل من أجله، أو أترك له شيئاً يوم موتي، لم أعد في حاجة إلى المحافظة على الأخشاب للمدفأة، بالنسبة لي، فقد كنت متعباً من كل شيء، متعباً ووحيداً، دون احتياج أو أمل، يكفيني الصيد وزراعة الكرم الذي أصبحت مالكه الوحيد.

اعتدت في النهاية على هذا الوضع، لم تكن هناك طريقة أخرى، تطلبت البداية مني جهداً مضنيا للتغلب على إحساس العزلة

الذي سيطر عليّ مع بداية أيام الربيع الأولى، وهذا لا يعود إلى أنني لم أشعر حتى هذه اللحظة بالملل الذي لا يزال يروي روحي حتى اليوم، جلوسي أمام المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة كان قد قضى على قوتي ورغبتي بينما الثلوج والضباب والصمت تمسح البيوت والأشجار، كان إحساسي بالوحدة رفيقاً أقضي معه ليالي الشتاء إلى جوار المدفأة، وما أهمية أن أقاسم أحد الخوف والجنون، ودورات الشتاء الأبدي؟ إنها لعنة قديمة لا علاج لها. عقاب قديم تحول منذ زمن طويل إلى عادة بفضل الضعف والاستكانة، لكن الحياة عادت تولد حولي من جديد، الشمس تمنح الحجارة ونوافذ البيوت دماً، وفي عنف الصمت كانت صرخة الغابة تتوافق أكثر مع العزلة، وتحاول أن تخفي حضور الجليد المدمر بلا فائدة.

أمضيت الربيع في المشتل والكرم، محاولاً إصلاح ما حدث في الشتاء الأخير، فقد نزعت الريح باب الحظيرة وحطمت بعض الأحجار، وكان يجب إصلاح بعض دعامات البوابة التي تعفنت بسبب الجليد والرطوبة، دعمتها بخيش، وبدلت بعضها بأخرى حصلت عليها من بيت "جابين"، انشغلت بنزع الحشائش المتسلقة التي بدأت في الزحف علي الحظيرة وجدران الفناء، لم أكن أعرف أو أريد أن أعرف إن هذا كان نوعاً من قضاء اليوم بأي طريقة كانت. كانت كذباً علي السماء وعلي النفس حتي لا أصاب بالجنون.

لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي، مع ذلك فقد غزاني التعب والخوار شيئاً فشيئاً لأن العمل المتواصل في الأيام الأولي فتح الطريق أمام الخمود السريع، وعندما جاء الصيف هِمتُ في القرية ككلب مهجور، كانت الأيام طويلة وخاملة، وخيم الحزن والصمت

علي "أينيلي"، كنت أمضي الساعات معلقاً بين البيوت، أتجــول فــي الأفنية وبين الغرف أحياناً عندما كان الظلام يتخفى بــين الأشــجار. كنت أشعل النار في الأوراق والأخشاب، وأجلس أمام أحد الأبــواب أحادث أشباح أصحابها القدامى، لكن الأشباح لن تكون الوحيدة التــي تغشى البيوت، التراب والعناكب تسد النوافذ، والرطوبــة والنــسيان يثقلان هواء الغرف ويجعلانه غير محتمل التنفس، كل بيت حــسب الوقت الذي قضاه مغلقاً، هناك بيوت ما تزال في حالة جيدة مثل بيت "أوربليو ساسا"، الدواليب والموائد في مكانها، الأسرة معدة كما لــو كانت تنتظر كالكلاب الوفية، العودة المــستحيلة لأصــحابها الــذين هجروها منذ سنوات، بيوت أخرى مثل بيت "خــوان فرانثيــسكو" أو مبنى المدرسة القديم ترقد على الأرض في خراب كامل، الجــدران تداعت، والدواليب على الأرض تحت أكوام من الأنقاض والصخور، ينمو الطحلب في بعضها كلعنة سوداء تتسلق الأسقف، بعضها الآخر غزته النباتات المتسلقة فحولت الدعامات إلى أشجار حقيقية، وغابات تضرب جذورها في الحوائط والأبواب، وعشش في ظلالها المــوت والأشباح، لكنها كانت جميعاً سواء قديمة أم حديثة مهجورة منذ زمن طويل أو قصير، جميعها عانت جروح الجليــد، وقرضــها الــصدأ، وأصبحت معقلاً للفئران والثعابين والطيور.

في إحدى أمسيات أغسطس وقعت الكارثة في بيت "آثين"، لــم يكن قد تبقى من البيت أكثر من كومــة مــن الحجــارة والخــشب والأساسات الأسمنتية التي تحــدد الموقــع- بــين زهــور العــسل والاورتيجا- كان المكان الذي بُني عليــه، لكنــي تــذكرت مكانتــه القديمة، وعزلة جدرانه على حافة الوادي، كان البيت مهجوراً منــذ

سنوات، لأنه كان أول من أغلق أبوابه في القرية: هجره أصحابه منذ بداية الحرب الأهلية، مثل جميع بيوت القرية لكنهم لم يعودوا أبـداً، رغم أني مازلت أتذكر الزوج العجوز، يجلس أمام البـاب، وأتـذكر ذلك الطفل (أنا كنت حينذاك طفلاً) الذي كان يُقال أنهما قد حبساه في الإسطبل مع الخيول، حتى لا يرى أحد شكله المفزع الرهيب، ويقال أنهما كانا يقيدانه إلى السرير ليلاً، وأن نحيبه كـان يـستمر حتـى الفجر، لكني لا أعرف إن كان هذا حقيقياً أم لا، لأنني لم أتمكن مـن رؤيته أبداً، رغم أنني حاولت ذلك أكثر من مرة، عندما كنـت أمـر بالقرب من الإسطبل، كنت أتسلق الحائط وأنظر عبر النافـذة وقـد تملكني الرعب وحب الاستطلاع، لـم أسـمع نحيبـه بـين تـنفس الحيوانات، ولا صراخ ونحيب الحيوانات التي كانت القرية تتحـدث عنهـا، مات الطفل في يوم ما- كنت في العاشرة من عمري- دفنوه ليلاً، دون أن تدق الأجراس، وإخفاه الزمن والـصمت، رغـم هـذا الصمت، والسنوات التي مضت منذ ذلك الوقت، ظل شـبحه يحـوّم حول البيت كذكرى حزينة أو لعنة، خاصـة عنـدما غـادر "آثـين" وزوجته القرية، تاركين البيت وذكرى الطفل لمصيرهما.

مررت بالقرب منه مرات عديدة دون أن أتجاسر على الدخول، ظلت الأبواب والنوافذ محافظة على مزاليجها الحديديـة، رغـم أن الإسطبل كان قد انهار في الشتاء الأخير- ومعه شبح الطفـل الـذي قضي عليه أن يعيش بيـن الحيوانات كواحد منها- ظلـت عزلـة البيت والصمت يخيمان على المأساة الغريبة بجاذبية غير مفهومـة، حملتني الصدفة إلى هناك ذات مساء، الصدفة والقدر قادا مـصيري في تلك السنوات، كانت ساعة القيلولة، وكانت الشمس تحطم الهـواء

وتشقق الأرض وتنزع الشقشقة من نبات العليق وأشجار البلوط المتحجرة، عند عودتي إلى القرية صعدتُ المنحدر وتوقفتُ أمام الباب لألتقط أنفاسي. مؤكدا أنها كانت المرة الأولى التي أجلس فيها هناك، على الحجر القديم الذي اعتاد أن يجلس عليه "آثين" وزوجته، ذلك العام كان الجفاف قد اعتصر الحقول والآبار، وغزت السحالي الحقول والأفنية، أما بيت "آثين" لانعزاله عن القرية، كانت تلك الحشرات تتحرك على أحجاره بهدوء وثقة، لم تلتفت لوجودي مطلقاً، استندتُ إلى الحائط، والكلبة بين قدمي والسيجارة تحترق بين شفتي، أتذكر أنني كنتُ أغالب النعاس– في ذلك اليوم صعدتُ الجبل مبكراً– عندما شعرتُ بألم حاد في إحدى يدي، اعتقدت في البداية أن بومة شوكية علقت بقميصي أو بالسروال، لكن سرعان ما سمعت ذلك الفحيح البارد اللزج الذي لا تخطئه الحاسة، كان يتسحب بين قدمي، قفزتُ من مكاني في اللحظة التي بدأت فيها الكلبة بالنباح، انتفضت شعيراتها وكشرت عن أنيابها، وكانت تخدش الباب بأظافرها، رغم السرعة التي وقع بها الحدث، فقد كان لدي الوقت لأرى كيف أن الحية كانت تنزلق من تحت الباب ببطء، وتختفي في أعماق البيت البعيدة.

غادرت الباب مرتعباً واتجهت إلى وسط الطريق، اللدغة كانت تحرق كفي ورعشة سوداء هزت قلبي كحريق، كنت أعرف جيداً أنه لا يجب أن أضيّع الوقت، نزعت الحزام، وبمساعدة أسناني ربطت ساعدي بقوة لإيقاف تقدم الدم في الذراع، بعد ذلك فتحت بالمطواة جرحاً فوق اللدغة واحتملت الألم بهدوء ومصصت السم من الجرح، ثم بصقته على الأرض بحقد، مرت ثمانية أعوام منذ ذلك الحدث

لكني لم أنس أبداً ذلك الملمس اللزج، وذلك الطعم الفاتن المسكر الذي لا يخطيء للسم وهو ينزف من الجرح.

كان أول من قمت به عند دخولي البيت، هــو إشــعال المــدفأة وغلي بعض الماء، بينما كان الماء يغلي جمعتُ زهور الأورتيجــا، خلصت عصيرها مع بعض الزيت ووضعته على الجرح، ثم لففتــه بقطعة قماش مبللة بالكحول والطين الطازج، هذه هي الطريقة التــي تذكرتها عندما حاول "بيسكوس" إنقاذ كلب العم "خوســتو"، بعــد أن لسعته الحياة في رأسه، لكن لم يكن في المستطاع عمل شيء لإنقــاذ حياته، بالنسبة لي لم يكن هناك خيار آخر، كانت وحيــداً فــي هــذه الجبال، وأقرب طبيب على مسيرة أربع ساعات سيراً على الأقدام.

طوال أيام عديدة، ناضلت ضد المــوت وحــدي، ملتفــاً بتلــك الأغطية، وقد تملكني اليــأس دون أن أملــك القــدرة علــى طلــب المساعدة، انتفخت اليد حتى غطت الحزام باللحم، وصعدت الحمــى في الدم كقيء أبيض يجري في الشرايين، لم أعرف الوقت أبداً، زمن طويل من الحمى والهذيان تشابه فيه الليل والنهــار، كانــت أعمــدة السرير، ترتعش كأشجار بين الضباب، لكني أتذكر أن الشمس كانت تدخــل أحياناً حتى الغــــرفة لتزيد من ثقل الأغطية– الغارقة فــي القذارة– كانت الكلبة مقعية أمام الباب وهي تنبح فــي حــزن، كــان صوتها يأتيني بعيداً كما لو كنت على بعد أمتار عديدة، يا للعجب مما أراه الآن! يبدو الأمر غريباً ومغرقاً في الخيال! كنت علــى وشــك الموت– كما أنا الآن– في هذا السرير، الشيء الوحيد الــذي أرقنــي وقتها، هو أنه إذا ما مت أنا هل تجد الكلبة نفسها بــلا معــين أمــام الموت حبساً في البيت، لم تكن لدي القدرة علــى مغــادرة الــسرير

وهبوط الدرج لأفتح لها باب الشارع. كانت الحمى قد وصلت تلك الليلة إلى نقطة لا تُطاق، ويدي تؤلمني كما لو كانت على وشك الانفجار، ثم انتقلتُ إلى حالة الهذيان بسرعة، أتقلبُ في الفراش باحثاً عن بعض الرطوبة في أطراف السرير ويكاد العطش يهلكني، لكن أناء الماء كان فارغاً ولساني تحول إلى خرقة قديمة لا تصلح حتى لمجرد ترطيب الشفاه، كما لو كان اللعاب قد تبخر بملامسته للدم، والنار المشتعلة في الجرح تحرق الأوردة والعظام وتبحث في فمي عن مخرج للألم.

مع انتصاف النهار، كانت الحمى قد وصلت مداها. جسدي يحترق كشعلة حية حتى أنني أشعر بضغط الحزام الذي كان مغروساً في اللحم المتورم، لم أعرف مطلقاً الحجم الحقيقي الذي وصل إليه التورم ولا درجة الحمى، كل ما أذكره أن عيني قد غشاهما ضوء أزرق ثقيل، ثم فقت الوعي.

منذ تلك اللحظة تفتتت الذكريات إلى آلاف من الشظايا، تحولت الصور إلى ذبذبات مهزوزة لا يمكن التعرف عليها أو على لحظاتها المعاشة، وظل في داخلي بخار وضوء بعيد يضيء الليل ويستعيد بعض الذكريات من بوابة الموت، كانت "سابينا" تظهر خلف النافذة والكلبة تنتفض نابحة خلف الباب، تركع "سابينا" على حافة السرير، الكلبة تنهش يدي المتورمة. أعرف أن كل هذا بسبب الحمى، ولكن الحلم المُقلق استمر حتى اليوم التالي، هل يمكنني التأكيد على أن هذا كان كذباً؟ أيمكن أن أنكر أن "سابينا" كانت هنا؟ من يمكن أن يشهد على هذا هما "سابينا" والكلبة، أو النافذة التي لا تزال تحتفظ بأنفاسها، عندما اكتشفت أنني كنت أرتعش من البرد بين الأغطية، وقد أغرقني

العرق الغزير، كانت هي خلف النافذة المفتوحة تماماً كهذه الليلة– لا شك سأشعر بالرعب الذي لم أشعر به تلك الليلة، لو عدت لرؤيتها، تقف خلف النافذة، معلقة في الهواء، سأختبئ تحت السرير كطفل، وأصرخ بكل ما أملك من قوة، وأصلي من أجل روحها. وأطلب منها الصفح، الحمى والبرد يسيطران على روحي، وظهور "سابينا" في الليل لم يترك لديّ الإحساس بالأسف والألم العميق، أغلقت عيني للحظات في محاولة لنسيانها، لكن ما أن فتحتهما حتى رأيتها على حافة السرير تحملق فيّ بعينين كما لو كانت لم تتعرف على وجهي وصوتي.

طوال فترة الحمى، لم تتركني "سابينا" لحظة واحدة، كانت هي فتحتْ الباب للكلبة التي كانت تلعق يدي المتورمة، بينما كانت هي تجلس على حافة السرير، كشبح من أشباح البيت، ربما كانت تنتظر السهر على جثتي إلى أن يعثر عليّ أحدهم ويواريني التراب (ربما تعود الليلة عندما ينتهي كل شيء، وتظل إلى جواري إلى أن يعثر بي رجال "بيربوسا" ويحملوني إلى جوارها للأبد) كنت أراها بين الأحلام، في مشهد كالسراب بسبب الحمى. تقف إلى جوار السرير أو راكعة في أحد الأركان في زاوية النافذة، أتذكر أنها كانت تصلي وصوتها ما زال كما هو عندما كانت على قيد الحياة، كان يرن في أذني بطريقة غريبة: حاداً جافاً، بلا صدى كما لو كان يصدر عن فم بلا حنجرة، غلبني النعاس فجأة، وعندما فتحت عيني مرة أخرى، بدلاً من صوتها، سمعت تنفساً عميقاً في الطرف الآخر من السرير، مرّ وقت طويل قبل أن أتعرف على الغرفة وانعكاس الزجاج القوي، لا أذكر إن كان انعكاس القمر، أم الصباح، أم إن الليل مازال يخيم أم

أن اشتعال الحمى حوّل النافذة إلى مـــرآة، جلـــستُ علـــى الـــسرير ونظرتُ من حولي، كانت "سابينا" لا تزال هناك، إلى جوار الباب، لم تحوّل بصرها عني لحظة واحدة، والكلبة اختفت، كان فـــي مكانهـــا طفل رهيب ذو رأس محشوة وتتدلى من رأسه خصلة شعر، يحمـــل يدي المتورمة بين يديه، من اللحظة الأولى عرفتُ أنه هو، رغم إني لم أره من قبل، تعرفتُ في عماه على ظلام الحظيرة في بيت "آثين".

رمقني بنظرة كما لو كان يعرفني، وانطلق ضاحكاً، كانت قهقهة خشنة وجافة، بلا صدى تصدر عن فم بلا حنجرة ولا أسنان، كانـــت ضحكة ميتة كما لو كانت نابتة من أعمـــاق الأرق تـــصطدم بعقلـــي وتتردد بلا نهاية، تملكني الرعب والحمى. لكني كنت واعياً بأنني لم أكن نائماً، استدرت حتى لا أراه- لأمحو ما أمكن تلك العيـــون ذات الأهداب السوداء، وذلك الفم الفارغ المـــرعب- فـــي تلـــك اللحظـــة استدرت باتجاه الباب الذي كانت تجلس أمامه "ســـابينا" ســـاكنة فـــي صمت: كانت هناك مئات الحيات، تزحف من تحت البـــاب بـــبطء، تتسلق الأثاث ودعامات السرير، تحتك بالبطاطين وتضيع في النهاية مخترقة أوردتي عبر الجرح الذي كنتُ قد فتحته أنا بنفسي بطـــرف المطواة لأخرج السم من يدي.

إنه آخر مشهد احتفظ به، المشهد الوحيد الذي لا يـــزال عالقـــاً بعيني كبقايا الحمى، أو كاستعادة نهائية لحلم لا ينتهي بعد ســـنوات، يعود الظلام من جديد، الظلام والليالي الطويلة والصمت.

عندما استيقظتُ، كانت شمس قوية تضرب وجهي، ربما كـــان الوقت يقارب منتصف النهار، أذكر حتى الآن ذلك الـــضوء القـــوي والطعم الثقيل الذي كان يبلل جسدي ويصهره مع الأغطيـــة، فتحـــتُ

عيني بصعوبة، قاومتا كثيراً لاعتيادهما على الليل، ليل الموت الثقيل الطويل– قاومتا اكتشاف تلك المومياء التي خلفهـا جـسدي بـسبب الحيات والشمس– حاولت للحظات وبعينين مغلقتين، أن أتذكر مجرى الليل وهدوء النوم اللذيذ، وقبلت فكرة أنني ميت لـبعض اللحظـات. رغم أنني كنت أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. فتحت عينـي بـبطء، فتحتهما بخوف وارتياب وعلى استعداد لإغلاقهما من جديـد وإلـى الأبد. لكن لم يكن هناك سبب يدعو لذلك. اعتدت في النهايـة علـى ذلك الضوء الحارق. رأيت جسدي كـاملاً علـى الـسرير، ويـدي المشوهة بضغط الحزام ملفوفة في صمت. كانت الغرفـة الفارغـة وحيدة وخاوية كما كانت هذه الليلة.

بقيتُ عدة أيام دون حركة، لقد أجهدني العرق والحمى، ولكـن تورم يدي انخفض شيئاً فشيئاً، وسعادتي بأني تخطيت مرحلة الخطر ساعدتني على استعادة صحتي، في أسـبوع واحـد خرجـتُ إلـى الشارع، اعتمدتُ في البداية على عصا– نفس العصا التي كانت أمي تعتمد عليها في نهاية حياتها– عاودت نزهاتي في القرية، وزيـاراتي السرية للبيوت، لكني لم اقترب من بيت "آثين" أبداً، لم أعـد مطلقـاً للمرور أمام الباب الذي اعتاد أن يجلس أمامه مع وزوجته، والـذي أوشكتُ أن أجد الموت أمامه في ليلة من ليالي الشتاء بعد ثـلاث أو أربع سنوات، اجتاحت المياه بقاياه، تطلعتُ على حطامه بالبطاريـة، كانت ليلة ثقيلة، رغم المطر والخوف شاهدت على ضوء البطاريـة سرير طفل يكاد يكون جديـداً، يرقـد بـين الـدعامات والأسـقف المتساقطة، وأربعة أحزمة جلدية مثبتة على جانبيه– ما زالت علـى استعداد لربط أي شخص في السرير– وفى منتصف الحـشية كميـة كبيرة من الثعابين، كونت عشها بين الأصواف.

(8)

عاد الألم فجأة: جافاً، خانقاً، وعميقاً، كما لو أن حيـــة صـــغيرة عششت في رئتيّ.

توقف تنفسي لبضع ثوان، تجمدت ذاكرتي وتوقف تنفسي، كان الألم يحفر في رئتيّ ككلب، بعد ذلك انخفض بطيئاً تاركاً مكانه شمساً باردة متأججة تحت الصدر.

منذ اللحظات الأولى التي اندلع فيها الألم– في ذلك اليـــوم مـــن شهر مارس "كانتا لوبوس"– عرفت أنه ينبض بنهاية محتومة، كـــان ألماً عميقاً، كصرير الدخان فى الرئتين، لكنه لم يمنعني من مواصلة عملي (كنت أجمع حطباً للمدفأة) لكن ذلك الصرير، تعرفت فيه على الفور على ذلك الاختناق البطئ الذي حطم يوماً حياة ورئتي ابنتي.

ازداد الألم مع مرور الأيام، كان في البداية بطيئاً ومستمراً، ثـــم أخذ بعد ذلك في الإسراع، وأصـــبح أكثـــر حـــضوراً فـــي عينـــيّ المسهدتين، اعترف الآن، إن فكرة الموت القريبة في ذلك الوقت لـــم تكن تخيفني أبداً، فقد تقبلتها منذ البداية كأمر محتوم واضح، منـــذ أن بدأت تقرض ذاكرتي وتنفسي منذ قبلت حضورها كلعنة، في الحقيقة، كان محكوماً عليّ بها منذ زمن بعيد، وفكرة الموت باتت الآن قريبة مني، تتنفس من خلالي وعبر حنجرتي. في الوقت الذي ينتهي فيـــه الزمن وتنطفيء فيه الأضواء، شيئا فشياً داخل وخارج عينيّ، تـــأتي كراحة لذيذة، وربما كان هدفاً مأمولاً.

في البداية لا نقبل فكرة الموت، لأننا نراها في الشباب بعيدة جداً وغائرة في الزمن، وتصبح بعدها مقبولة، لأن السنوات تثبت لنا باقي هذه الحقيقية ونفس الخوف، خوف من الشر، خوف من الدمار، خوف من البرودة الأبدية والنسيان.

أذكر أنني عندما كنت طفلاً كان يخيفني الفراغ الكبير الذي يختبيء خلف عيون الموتى، وأتذكر أيضاً ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه وجه الموت، كنت في السادسة من عمري، وكان الجد "باسيليو"– والد أبي– الذي لا تحفظ ذاكرتي عنه سوى أحذيته الملقاة إلى جوار المدفأة، كان طريح الفراش منذ أيام، كان أبي يحمل إليه الطعام– الذي لم يكن الجد يأكله– رغم أن أبي لم يكن يغادر البيت إلا قليلاً، إلا أنه لم يكن يسمح لي بزيارة الجد.

عند عودتي من المدرسة في إحدى أمسيات الشتاء، شاهدت أبي في الحظيرة يصنع صندوقاً كبيراً، كان منهمكاً في عمله فلم ينتبه إلى أنني أراقبه، لم يكن هناك أحد في المطبخ، انتظرت في الفناء، وعندما تعبت صعدت الدرج لأبحث عن أمي– لا أعرف إن كنت قد فهمت شيئاً في هذه اللحظة أم لا– كنت أجهل هدف أبي من صناعة الصندوق الكبير، سمعت أمي تبكي خلف أحد الأبواب، وفي خوف، ذهبت للبحث عنها في غرفة الجد، لم تكن هناك، كانت قد ذهبت للبكاء في غرفة أخرى، وكان جدي في غرفته وحيداً، ساكناً في سريره ورأسه على الوسادة، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما.

شاهدت منذ ذلك اليوم النظرة الأخيرة للموتى مرات كثيرة، رأيت عيني أبي وأمي، عيني "سارة" الصفراوتين الجريحتين بسبب الجليد، كان حظي دائماً أن أغلق تلك العيون التي كان بعضها جامداً

وتخبيء انعكاساتها إلى الأبد، شعرت دائماً بنفس الدوار والبرد النفّاذ الذي اخترقني في تلك الأمسية الشتوية أمام العينين الصافيتين الميتتين لجدي.

لكن دوار وبرودة الموت لم تعد تخيفني منذ زمن بعيد، حتى قبل أن تترك داخلي تنفسها الأسود، حتى قبل أن أبقى وحيداً في "أينيلي" كشبح آخر بين أشباح الموتى، علمني أبي أن الموت ما هو إلا الخطوة الأولى لرحلتنا الأخيرة باتجاه الصمت، كان أبي رجلاً قوياً، نشأ على العمل والنضال في هذه الأرض العقيم، لكنه سقط في أحد الأيام مريضاً. ولم ينهض من مكانه الدائم أمام المدفأة، كان يعرف أن أيامه معدودة، كان يعرف أن البومة التي كانت تصرخ ليلاً في الحقول- وتحاول "سابينا" إبعادها بالصراخ والحجارة- كانت تعلن موته، لكن لم يُظهر خوفه على الإطلاق، لم يبد أي علامة من علامات الخوف، وفي إحدى الأمسيات والشمس تقترب من المغيب، رأيته قادماً في الشارع وهو يسير بصعوبة، سألته عن سر خروجه، لكنه دقّق النظر فيّ بحزن: جئت بعد رؤية المكان- أتذكر أن هذا هو ما قاله لي- الذي ستحملوني إليه مبكراً وللأبد، عثرتْ عليه "سابينا" في الصباح التالي ميتا في سريره.

ظلت تلك الجملة الأخيرة لأبي عالقة في ذهني إلى الأبد، ذلك القبول البارد بالهزيمة هزني بعمق، وجعلني مع مرور الزمن أواجه الموت وجهاً لوجه. بلا خوف، ولا قنوط، وجدت في تلك الجملة الراحة والنسيان، أفادتني عندما عثرت على "سابينا" مشنوقة في الطاحونة، وسحبتها إلى البيت رغم الجليد، أفادتني بعد ذلك عندما بقيت وحيداً في "أينيلي"، وساعدتني على قبول فكرة أنني ميت أيضاً

في ذاكرة ابني، وذاكرة الرجال الذين كانوا يوماً من أصدقائي وجيراني، وتفيدني الآن بعد سنوات طويلة، عندما يغزو الألم رئتي كمطر أصفر ومرير، وأنا أسمع البومة وهي تعلن موتي بين الصمت وبقايا القرية التي ستموت بعد قليل أيضاً.

(9)

رغم جهودي في الحفاظ على الأحجار حية، إلا أن الواقع يؤكد أن "أينيلى" قد ماتت منذ وقت طويل، منــذ أن بقينــا أنــا و"ســابينا" وحيدين في القرية، وربما قبل أن يموت أو يرحل جيراننا، لم نكــن طوال هذه السنوات– أو لم نستطع– أن ننتبه لــذلك، قاومــت هــذا الأحساس طوال تلك السنوات، رغم الصمت والدمار، لكني أعــرف الآن أنه بموتي سيموت ما تبقى من جثة لا تعيش إلا في ذاكرتي.

المشهد من أعلى الجبل، ما يزال يحتفظ لــــ"أينيلـــى" بــشكلها وقسماتها التي كانت دائماً: زبد أشجار الحور، والكــروم المجــاورة للنهر، وعزلة الطرق والأسيجة، لمعان الضوء على أسطحها تحــت شمس منتصف النهار أو الجليد، تبدو البيوت بعيدة عن أشجار البلوط المحيطة بالطريق المؤدي إلى "بيربوسا" أو على طريق الجبل، وتأخذ في غبار الضباب شكلاً لا واقعياً، لا أحد كان يمكنه أن يتخيل هــذا المشهد إلا عندما يكتشفه من بعيد. "أينيلى" ما هى إلا مقبرة مهجورة للأبد، ولا توجد طريقة لإنقاذها من مصيرها المحتوم.

عشتُ أنا التطور اليومي البطئ نحو الــدمار، شــهدتُ ســقوط بيوت كثيرة، حاولتُ بلا فائدة أن ينتهي كل هذا مبكراً، فتتحول إلــى مدفني الخاص، شهدتُ طوال تلــك الــسنوات الاحتــضار المفجــع الطويل، كنتُ الشاهد الوحيد لتحلل قرية كان يمكن أن تمــوت قبــل ميلادي. واليوم هي على حافة الموت والنسيان، ومــا زال صــوتها

يرن في أذنيّ، وصدى صرخات الحجارة المدفونة تحت الطحالب، ونحيب الدعامات والأبواب التي تتعفن.

كان بيت "خوان فرانثيسكو" أول البيوت التي أغلقت أبوابها، كان ذلك منذ عدة سنوات، كنت لا أزال طفلاً ، لا زلت أذكر من البيت بوابته القديمة، والشرفات الحديدية، والكرم الذي كنا نختبئ فيه أحياناً في جرينا وألعابنا الطفولية. ومن العائلة أذكر عيون طفلة، ما زلت أذكر يوم الرحيل في إحدى أمسيات أغسطس، رحلوا في طريق "بروتو"، حملوا الصناديق والأثاث على عربة تجرها البغال، كنتُ مع أبي على هضبة "أينيلي"، كنا نرعى الغنم، نجلسُ على الحشائش وشاهدناهم يمرون بالقرب منا، ويختفون في المساء وطريق "اسكارين"، أتذكر أن أبي ظل صامتاً لوقت طويل: مولياً ظهره للقطيع، يتابع الطريق كما لو كان يعرف ما سيحدث منذ ذلك المساء. فجأة شعرتُ بحزن كبير، فانبطحتُ على الحشائش وبدأتُ في الصفير.

لم يكن رحيل أهل بيت "خوان فرانثيسكو" سوى البداية لوداع طويل لا ينتهي. البداية لهجرة لا تتوقف. ولن يضع نهاية لها سوى موتي. كانت بداية بطيئة لكنها تحولت إلى أبدية، لأن سكان "أينيلي"– مثل كل سكان قرى جبال البرانس– حملوا على عرباتهم ما استطاعوا، وأغلقوا أبواب بيوتهم إلى الأبد. وانطلقوا في الطرقات بصمت، وفي الشوارع المؤدية إلى السهول. كما لو كانت ريح غريبة قد هبت فجأة على الجبال، وأثارت عاصفة في كل قلب وكل بيت. كما لو كان الناس، بعد قرون عديدة، اكتشفوا البؤس الذي يعيشونه، ولا سبيل إلى التخلص منه إلا بالرحيل إلى مكان آخر.

ذهبوا بلا عودة، ولا حتى عادوا للبحث عن الأشياء التي تركوها هنا. فتحولت "أينيلي" إلى فراغ مثل كل القرى المحيطة. فراغ وعزلة إلى الأبد.

هناك وداع أذكره بحزن خاص: هجرات فجائية، تركت في الذين بقوا فراغاً غير عادي، مثل رحيل "آمور" مع أبنائها إلى أرض لم تعرفها مطلقاً، أو "اوريليو ساسا" الذي كان يسكن البيت الكبير، والذي رحل بعد دفن أمه بأيام قليلة. أو "أندريس" ابني، لكن الوداع المؤثر كان وداع "خوليو" الذي كان النهاية بالنسبة لنا، أما وداع الهرم "أدريان" فقد ترك أثراً لا يُمحى.

كان ذلك عام خمسين، بقينا أربعة: "خوليو" و"توماس" و"جابين"، وأنا. كنا مبعثرين بين البيوت العديدة المغلقة أو المهدمة. مستسلمين لموت "أينيلي"، كان "أدريان" يعيش معنا منذ فترة، لأنه لم يكن يملك بيتاً، عمل لأكثر من نصف قرن خادما في بيت "لاورو"، وعندما رحلوا، تركوه وحيداً مثل كلب بلا صاحب، بلا بيت ولا عائلة ولا عمل، أخذناه معنا شفقة وحزناً عليه. فلم تكن هناك حاجة إلى مساعدة يمكن أن يقدمها لنا الهرم المسكين، لكنه كان وفياً ككلب، يبذل جهده كل يوم ليدفع لنا بعمله ثمن ما نعطيه من سقف وطعام. جاء "أدريان" من قرية "ثياس" القريبة، قدم إلى "أينيلي" ليعمل خادماً وهو لا يزال طفلاً. لم يخرج من هنا بعدها أبداً، ولا حتى أثناء الحرب عندما أمروا إخلاء القرية، بقي وحيداً يرعى الأغنام والبيت تحت رحمة القصف الذي كان يدمر الجبال. التي كانت لها أهمية استراتيجية لقربها من الحدود والخطوط الحديدية، لكنهم تركوه شيخاً هرماً، كما لو كان كلباً، بعد حياة كاملة من العمل والوفاء للبيت

وأصحابه، تركوه بلا مكان يحتمي فيه ولا أهل يعولونه، ربما كـان الوحيد الذي يخشى البقاء هنا، حتى لا يتأمل موت قرية ليست له، لم يطلب مني شيئاً– أدريان لم يكن معتاداً على الكلام أو التعبيـر عـن مشاعره أو خوفه– لكني فهمت ذلك من حـزن عينيـه الحـائرتين. وستارة الصمت التي كانت بيننا، بينما الرياح تعوي فـي الـشوارع والأخشاب تئن في النار ببطء، كان دائماً ما يجلس إلى جوار النـار، بعد حبس الأغنام، وتناول طعام العشاء، يبقى هناك، دون أن يوجـه إلينا كلمة واحدة. إلى أن يغلبه النعاس، وأحياناً كان يظل في مكانـه حتى الفجر، كل هذا لم يكن له أهمية عندي، اعتدت علـى صـمته وحضوره الأخرس، وسكونه في الطرف الآخر من المقعـد، كـان يعرف أنه معنا، ليرافقنا في الهزيع الأخير من الحياة الـذي نـشعر جميعاً بعزلته ومرارته، وأعتقد أن هذا الأحساس كان يخامره أيضاً.

في الليلة التي ذهب فيها، بقي وحيداً في المطبخ حتـى وقـت متأخر، نمت كعادتي في الثانية عشرة، لم ألاحـظ عليـه أى شـئ غريب، لا شئ ينبئ بالقرار الذي اعتزمه، وكنا تواعدنا على القيـام مبكراً، لبناء سياج كانت الرياح قد حطمته ذلك المساء. لكن عنـدما جاء الصباح، كان "أدريان" قد ذهب، رحل بالأشياء القليلة التي كـان يمتلكها بعد كل هذه الحياة الطويلة من العمل. ولم نعد نعـرف عنـه شيئاً، لكن بعد زمن، عثر "جابين" على حقيبته مخبأة بين العوسج في طريق المهربين القديم، وقد تعفنت بفعل المطر.

عندما كان "جابين" و"خوليو" في "أينيلى"، كنا نجاهد ثلاثتنا حتى لا يُكتب على القرية بالموت قبل الأوان، كان "جابين" وحيـداً، لكـن "خوليو" له ابنتين وشقيقاً، كنا نتعاون على تنظيف الـسدود وحـرث

الكروم، وتسوية الشوارع، وترميم الحوائط والأسيجة، ونقوي أحياناً الدعامات ونرمم الشقوق، والبيوت التي أخذت في الأنهيار. كانت سنوات صعبة، سنوات من الوحدة والخيبة، لكنها أيقظت فينا الإحساس بالتضامن والصداقة التي كنا نجهلها حتى ذلك الوقت، كنا نعي ضعفنا أمام غضب الزمن وشتاء الجبل، نعرف أننا وحدنا منسيون في أرض لم يعد يعبرها أحد. ذلك الضعف كان يقربنا ويوحدنا أكثر من الصداقة وقرابة الدم. كنا نتعاون في العمل، نتقاسم المراعي التي كانت من قبل لكل سكان القرية. وفي الليل نتجمع بعد العشاء في بيت واحد نتقاسم النار والذكريات.

كنا نعتقد أن ذلك لم يكن إلا حلماً. هدنة مؤقتة وسريعة في حرب سيكون أحدنا ضحيتها المقبلة في يوم من الأيام. كانت الضحية التالية هى "جابين". وجدناه ميتاً فى البيت فى صباح أحد الأيام. كان جالساً في المطبخ والسيجارة الأخيرة ما تزال بين شفتيه، مات الشيخ كما عاش: وحيداً ، دون أن يشعر به أحد. ومعه انتهت حكاية بيت. ربما كان أقدم بيوت القرية. وصار الأمل الوحيد لى ولـ"خوليو" ألا نبقى وحيدين في يوم من الأيام.

ذهب "خوليو" مع نهاية ذلك الصيف، لم يأخذ من حاجياته شيئاً. كما لو كان يخاف أن أشيعه في الرحيل. لم يخبرني بقراره حتى اللحظة الأخيرة. أذكر أنه في تلك الليلة كانت هناك روح غريبة تهيم في الشوارع. كنا نتناول الطعام في صمت، ودون أن يجرؤ أحدنا على النظر في وجه الآخر. ثم خرجت لأختبئ في الطاحونة. كانت ليلة حزينة جداً. وربما أكثر حزناً من كل الليالى التي عشتها طوال حياتي. بقيت جالساً في أحد الأركان لعدة ساعات ملتفاً بالظلال.

ودون أن أتمكن من النوم أو نسيان آخر نظرة في عينـــي "خوليــو" عندما ودعني، كنت أرى عبر النافذة البوابة الغارقة في الطحالــب، والانعكاس المرتعش لأشجار الحور الساكنة على النهر، كانت تبــدو كأعمدة صفراء تحت ضوء القمر البارد القاتل، كل شئ لفه الصمت، في هدوء ثقيل متماسك يزيد من الكرب الذي كنت أشعر بـــه، فـــي البعيد على خط الأفق، أسطح "أينيلى" تسبح في الليل كظلال الحـــور التي تسبح في الماء. فجأة هب نسيم ناعم وفتح طريقـــه فـــي النهـــر والنافذة، وامتلأت أسقف الطاحونة بمطر أصفر كثيف، إنهـــا أوراق الحور الميتة التي تتساقط، مطر الخريف الكثيف البطئ الذي عاد إلى الجبال من جديد، ليغطي الحقول بذهب قديم، ويغطي الطرق والقرى بكآبة وحشية جميلة، استمر ذلك المطر لحظات قليلة، كانـــت كافيـــة لصبغ الليل بكامله باللون الأصفر، وعندما يأتي الصباح، يسقط ضوء الشمس فيشعل الأوراق الميتة أمام عيني، أعرف أنه المطـــر الـــذي يصيب بالصدأ والدمار البطئ. خريفاً بعد خريف، ويوماً بعـــد يـــوم، كلس جدران البيـــوت، حـــواف الخطابـــات وماكينـــات الطاحونـــة المهجورة، وقلبي.

منذ تلك الليلة، كان الصدأ هو ذاكرتي ومشهد حيـــاتي الوحيـــد، مسحت أوراق الحور الشوارع طوال خمسة أو ستة أسابيع، وســـدت الشوارع ودخلت روحي كالغرف المهجورة في البيت. بعد ذلك حدث ما حدث لـــ"سابينا"، كما لو كانت القرية من صـــنع عينـــي، ســـقط النسيان عليها بكل قوته ووحشيته، وهجروني جميعاً، حتى زوجتـــي، وتموت "أينيلى" دون أن أحاول اتقاء هذا الموت، كنت والكلبة شبحين غريبين وسط هذا الصمت، يتطلع كل منا للآخـــر، رغـــم أن كلانـــا يجهل الإجابة عن سؤال الآخر.

بدأ الدمار زحفه ببطء دون أن أنتبه إليــه، عجــت الــشوارع بالعوسج والأورتيجا، وخرجت النوافير عن مجراها القديم، ســقطت الأسيجة تحت ثقل الصمت والجليد، وبدأت الشقوق الأولى تطل مــن الجدران والأسقف القديمة، لم أستطع شيئاً أمام كل هذا. دون مساعدة "خوليو" و"جابين". أصبحت تحت رحمة الصدأ، و تحولت "أينيلى" في سنوات قليلة إلى مقبرة رهيبة كالتي ما زلت أراها عبر النافذة.

اخترقت عاصفة القرية من أقصاها إلى أقصاها. عـــدا بيــت "جابيــن"، فإن خط الدمار كان في طريقه لا يحيد عنه، وصعب على الترميم. العشب والرطوبة يزحفان في كل بيت فــي صــمت. تبــدأ بالجدران بعد ذلك الأسقف، ثم الدعامات العاريــة، ثــم يــأتي دور الحشائش المتسلقة المتوحشة، والطحالب السوداء، ثم يتــولى الــريح وعواصف الجليد تدمير ما تبقى من البيت بعد أن يكون قد تعفن من أساسه. أسمع صوت الصدأ الزاحف في الليل، وزحف العشب المظلم على الجدران. أعرف أن يده الخفية سرعان ما تطول بيتي. اســتيقظ أحياناً على صوت جدار يسقط، بينما ينهمر المطــر وتــئن النوافــذ ويدور النهر في البعيد كدوامة.

كانت حظيرة "خوان فرانثيسكو" أول الضحايا، كانت مهجــورة منذ زمن، كنت أتأملها قبل سنوات، لكنها لم تحتمل الهجر فــسقطت كحيوان يسقط صريعاً بطلقة واحدة. ثم انهار باقي البيت في الــسنة التالية من موت "سابينا". وأخذ في طريقه حظيرة "سانتياجو" ومخزن أخشابه، ثم بعد ثلاث سنوات انهار بيت "لاورو" واكتملت المأســاة، ودخل مسلسل التساقط حسب نظام الهجرة. الواحد بعد الآخر، بيــت "آثين"، بيت "جورو" ، بيت "شانو"، انهارت أكثر بيوت القرية.

عندما هاجم الصدأ بيتي كنت أعرف أنني محاط بالموت. كان في جدران الكنيسة وسياج الكرم. في سقف بيت "بيسكوس" وحشائش الشارع، لكن الدعامات كانت قد قبلت مصيرها المحتوم إلى أن انفتح شق في نافذة الحظيرة، لم أكن أعتقد أن الانهيار والموت قد دخلا البيت، وقفت مذهولاً مرتبكاً من هول المفاجأة. لم أفهم كيف يسقط بيت قبل الأوان، أو أنني أهجره، استطعت وقف زحف الشق القريب من النافذة، بإضافة دعامات وأخشاب بيوت أخرى، لكن الشق انفتح من جانب آخر، أكثر اتساعاً وعمقاً. شق الجدار من أعلى إلى أسفل. وجعل من المستحيل إيقاف ما هو محتوم، ثم سقط مخزن القش، بعد أن تحالفت عليه المياه والريح لتقضي على كامل بنيانه، أخرجت الأشياء القليلة الباقية– الأخشاب، والأدوات، والصناديق التي كانت تحفظ الدقيق، وحديد الأغنام– كومتها في غرف البيت، وأخذت الاستعداد لخوض ما يمكن أن يكون معركتي الأخيرة.

منذ ذلك الوقت إلى اليوم، زحف الموت الثقيل ببطء، في الأساسات والدعامات الداخلية للبيت، وفي أربع سنوات دفن اللبلاب الفرن والصومعة واخترق السوس دعامات البيت بكاملها. السوس واللبلاب حطما عمل عائلة طوال قرن كامل، ويتقدمان الآن معاً في أخشاب الممر القديمة المتعفنة والسقف بحثاً عن الدعامة الأساسية التي تحفظ توازن البيت وذاكرته. تلك الدعامات القديمة الصفراء المتعبة، كأمطار الطاجونة في تلك الليلة، المطر في قلبي وذاكرتي، وسيأتي يوم قريب تتعفن فيه الدعامات بكاملها وتسقط، ربما رافقني الجليد في البيت حتى النهاية المحتومة.

(10)

كان الموت يرافقني في البيت– الكلبة تنبح أمام الباب بحـــزن– زارني الموت فعلياً عدة مرات، جاء عندما عادت ابنتي فجـــأة فـــي إحدى الليالى لتحتل الغرفة التي ظلت مغلقة بالمزلاج منذ موتها، جاء أيضاً عندما عادت "سابينا" ليلة رأس السنة على تلك الصورة التـــي أتت عليها النيران، وعندما كانت هنا تسهر علـــيّ فـــي احتـــضارى والحمى تنهشني والجنون يرافقني بين الأغطية، ثم جاء ليرافقني إلى الأبد، عندما ظهرت أمي فجأة في المطبخ بعد دفنها بسنوات.

حتى تلك الليلة كنت أشك في عيني والأشباح وصـــمت البيـــت. رغم وضوح ما عشته، كنت أعتقد– أحاول على الأقل أن أعتقد– أن الحمى والخوف قد أثرا في عيني وشكلاً بعض الصور التي لم تكـــن موجودة إلا في ذكرياتي. لكنه في تلك الليلة كان واقعياً بشكل وحشي لا يقبل الشك. عندما فتحتْ أمي الباب وظهرت فجأة وسط المطـــبخ، كنتُ أجلس إلى جوار النار، يقظاً كما أنا الآن، لم أشعر بأي خـــوف لرؤيتها.

رغم السنوات التي مضت، لم أجد صعوبة في التعرف عليهـــا، كانت كما أتذكرها تماماً، كما كانت على قيد الحياة، تهيم في البيـــت ليلاً ونهاراً، تحرس الماشية والعائلة، ترتدي ذلـــك الفـــستان الـــذي ألبستاه إياه "سابينا" زوجتي وأختي عند موتها. المنديل الأسود الـــذي لم تتركه مطلقاً، تجلس في نفس المقعد إلى جوار النار، ســـاكنة فـــي

صمت، كما كانت دائماً، يبدو أنها جاءت لتؤكد لي أن حقيقة أن الزمن الذى مات، لا هي.

ظلت الكلبة تنبح أمام البيت طوال الليل، يقظة وخائفة، كما لو كان سكان "أينيلى" ساهرون على أمواتهم. أو أن المهربين والذئاب يقتربون من القرية. مكثنا طوال الليل صامتين، أنظر إلى أمي وهي تنظر إليّ، نتأمل النيران وهي تأتي على الحطب والذكريات، بعد زمن طويل فصلنا فيه الموت، الواحد تجاه الآخر دون أن نجرؤ على مواصلة حديث انقطع فجأة منذ زمن طويل. أعرف أنها في المطبخ من نباح الكلبة الخائف ومن الظل الغريب الذي تعكسه النار على الأرض تحت المقعد. لم أشعر بالخوف في أية لحظة، لم أدع الشك يراودني منذ أن جاءت لتسهر على موتي. في لحظة الشروق، أيقظني فجأة ضوء ضعيف، كنت ما أزال أجلس جوار النار، لكنها لم تكن موجودة معي في المطبخ، وشعرت لأول مرة بقشعريرة غامضة، كانت هذه آخر ليلة في شهر فبراير، الليلة التي ماتت فيها أمي منذ أربعين عاماً مضت.

منذ ذلك اليوم، عادت أمي لتؤنس وحدتي عدة مرات، كانت تأتي في منتصف الليل، عندما يغالبني النعاس، وتخمد الأخشاب بين جمرات الموقد، كانت تظهر فجأة في المطبخ، بهدوء وسكون، دون أن تعلن أبواب الممر ولا الشارع عن قدومها، كنت أعرف من نباح الكلبة الخائف حتى قبل أن تقترب أمي من المطبخ، وقبل أن يظهر شبحها في الشارع، تكون أحياناً العزلة أقوى من الليل، ويغلبني التعب والذكريات والجنون، أجري إلى السرير وأتدثر في الأغطية كطفل، حتى لا أقاسمها خوفي وجنوني.

لكن في إحدى الليالي، حوالي الثانية أو الثالثة صباحاً، استيقظت فجأة على صوت همهمة غريبة، كانت الليلة باردة مثل ليالي نهاية الخريف. والمطر الأصفر يسد النافذة. فكرت في البداية إن الهمهمة جاءت من الخارج، أو أنها صدى الريح التي تكنس أمامها الأوراق الجافة. لكن سرعان ما أيقنت الحقيقة. الهمهمة الغريبة لم تأت من الشارع، كانت آتية من ركن ما بالبيت، همهمة أصوات، كلمات غريبة، شخص ما يتحدث مع أمي في المطبخ.

أنصتُ من السرير، أتسمع لبعض الوقت قبل أن أنهض، توقفتْ الكلبة عن النباح، فأصابني صوتها بالرعب أكثر من صدى الكلمات الغريبة، أكثر من مطر الأوراق الميتة الذي يلون النافذة بكاملها باللون الأصفر. عندما خرجتُ إلى الممر توقفت الهمهمة. كما لو كانوا قد سمعوا وقع خطواتي. أخذت السكين الذي يرافقني منذ موت "سابينا"، هبطت السلم مقرراً التعرف على من يتحدث مع أمي في المطبخ ، لم أكن في حاجة إلى السكين، فلم يكن في المطبخ غير أشباح ميتة، صامتة، تتحلق حول النار، إستدارت هي عندما فتحتُ الباب من خلف ظهورها، بذلتُ جهداً لأتعرف على وجوه "سابينا" وكل موتى البيت.

ودون أن أتوقف، خرجتُ إلى الشارع، أتذكرُ أن الهواء كان بارداً، ويضرب وجهي بعنف، الشارع غارق في الأوراق الميتة، والريح تحملها في دوامات عبر الكروم والأفنية، توقفت إلى جوار بيت "بيسكوس" لأستنشق الهواء، كل شيء يجري بسرعة وغموض، لم أكن على يقين بأني أعيش حلماً: ما أزال أشعر بحرارة الأغطية، والهواء يسد عينيّ، ويدفعني في جميع الإتجاهات. كانت السماء

صفراء مثل كابوس يخيم على الأسطح والأسيجة. لكن ذلك لم يكـن حلماً. الذي رأيته وسمعته في المطبخ كان حقيقة كحقيقة وجودي الآن في الشارع، شلني الخوف، وأسمع أصواتاً خلف ظهري من جديد.

وقفت مشلولاً لبعض اللحظات، كاد قلبـي أن ينفجـر– كان الهواء يضرب أبواب ونوافذ البيت لوقت لا أذكره– خرجت من بيتي، هارباً تاركاً من خلفي البرد ونظرات الموت، دون أن أعرف، إلتقيت الموت وجهاً لوجه، كنت في مطبخ بيت" بيـسكوس"، أجلـس على المقعد، سهرت إلى جوار نار غير موقدة، وذاكرة البيت التي لم يعد يذكرها أحد، كان الموت خلف النافذة التي اعتمدت عليها دون أن أدري.

أصابني الرعب فخرجت هارباً إلى الشارع، وعرق بارد يجري على جسدي، أعمتني الريح والأوراق، ثم بدأت القريـة فجـأة فـي الاهتزاز: الجدران تتداعى، على وقع خطاي. الأسقف تـسبح فـي الهواء كظلال تبتعد عن أجسادها. وتحولت السماء في أفـق الليـل الممتد إلى اللون الأصفر، مرقتُ أمام الكنيـسة دون أن أتوقـف، أو أفكر في الاختباء داخلها، كان البرج مائلاً، بشكل مخيـف، عـادت الأجراس تدق كما لو كانت حية تحت التراب، لكن النافورة التي تقع في شارع "جابين" توقفت عن السيلان، فجأة. كانت المياه صفراء بين ظلال العنب السوداء. هربتُ باتجاه بيت "لاورو" فاتحاً طريقي فـي الريح والحشائش المتسلقة تخدشني، والعليق يلتف حول ساقيّ كما لو كان يريد إيقافي، واصلت متقطع الأنفاس. كنت على وشك الـسقوط من التعب. وعندما أصبحت في السهل المفتوح، بعيداً عـن البيـوت وأسيجة الكروم، توقفت أتأمل ما يحدث من حولي: كانـت الـسماء

والأسطح تشتعل تحت نفس الضوء المتوهج، وتضرب الريح الأبواب ونوافذ البيوت بين نباح الأبواب والأوراق الأبدي، كان هناك نحيب غامض يخترق شوارع القرية، لم أكن في حاجة إلى العودة لأعرف أن جميع المطابخ كانت مسكونة بموتاها. همتُ طوال الليل على وجهي في الطرق والشوارع دون أن أجرؤ على العودة إلى أهلي، انتظرتُ طلوع النهار لأكثر من خمس ساعات، وتملكني الخوف من ألا يصل هذا النهار أبداً، كان الخوف يدفعني في الطرق والجبال بلا هدف، الأشواك تعلق بملابسي ناسفة قواي شيئاً فشيئاً، لم أكن أشعر بها وأكاد ألا أراها بسبب الريح، كان الجنون يدفعني إلى أبعد من الليل والإحباط. وأخيراً جاء الصباح، كنتُ بعيداً عن القرية، في أعلى قمم "إيراتا" بجوار برج مراقبة الأغنام، الذي لم أره منذ سنوات.

انتظرتُ شروق الشمس، جالساً بين العليق، أعرفُ أنه لا ينتظرني أحد في القرية فقد ذهبتْ الأشباح مع بزرغ النهار، لكني كنت متعباً جداً، فلم أكن قادراً على الوقوف لكني استعدت قواي شيئاً فشيئاً– ربما كنت قد نمت لبعض الوقت– وأخيراً عندما استطاعت أشعة الشمس اختراق سحب "إيراتا" السوداء، بدأتُ في العودة، هبطتُ الجبل في ضوء النهار، وقطعتُ بسرعة طريق العودة الذي صعدته في تلك الليلة. توقفت الرياح وخيم على الجبال هدوء ثقيل، وفي أعماق النهر كانت بيوت "أينيلى" تسبح في الضباب بنفس جمال الصباح. وجدتُ الكلبة بالقرب من البيوت التي ظهرت فجأة على حافة الطريق. كانت ترتعد من الخوف والفرحة، قضت المسكينة الليل بين الأيائك، كانت ترمقني في صمت في محاولة لفهم ما حدث.

لكني لم أستطع أن أقول لها شيئاً، حتى لو كانت تفهم كلامي، ما كان يمكنني أن أشرح لها، لأني لم أفهم شيئاً مما حدث. ربما كــان هــذا حلماً، أو كابوساً ناتجاً عن الوحدة والكآبة، وربما لا، ربما ما رأيتــه وسمعته في تلك الليلة كان حقيقة، كمــا أرى الآن الكــروم وأســمع صراخ الطيور. ما تزال الأشياء ضبابية، وتلك الأشــباح الــسوداء تنتظر عودتي إلى المطبخ، لكن رفقة الكلبة منحتني القوة، لاختــرق البيوت، والإقتراب من بيتي، كان باب الشارع مفتوحاً كما تركتــه، وصمتٌ عميق ينبع من أعماق الممر، لم أشك لحظة، ولــم أتوقــف لأتذكر ما حدث في الليلة الماضية– وفي ليال أخرى سابقة، واعتقــد أنني عشته، اخترقتُ البوابة ودخلت واثقاً أن ما حدث كان خداعاً. لا يوجد أحد في المطبخ، كان المقعد وحيداً، كما كان دائماً، وتُلقي عليه النافذة أول أشعة النهار، لكن المدفأة كانت موقدة بشكل غير مفهــوم، أنا متأكد من إطفائها قبل النوم، كان يلفها بريق غريب.

مرت أشهر عديدة قبل أن يحدث لي شيئ مشابه، كنتُ أجلــسُ كل ليلة في المطبخ، متحفزاً لأي ضوضاء، خائفاً من أن ينفتح الباب بشكل مفاجئ، وأن تظهر أمي أمامي من جديد، لكن الشتاء انقــضى دون أن يحدث شيئ، دون أن يعكر صفو المطبخ أو قلبي أي شــيئ، وعندما جاء الربيع، بدأ الجليد في الانصهار، وأخذ النهــار يطــول. كنتُ موقناً من أن أمي لن تعود أبداً ، لأنه لم يكن لها وجود إلا فــي مخيلتي.

لكنها عادت في إحدى الليالي بشكل مفاجئ، كانت ليلة ممطرة، وأذكر أن نوفمبر كان يقارب على الانتهاء، وكان الزجاج يلفه الهواء الأصفر، جلستْ على المقعد وظلتْ تحملق فيّ بصمت، تماماً كاليوم الأول.

منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، عادت أمي مرات عديدة، ترافقهـــا "سابينا" أحياناً، وأحياناً أخرى كانت محاطة بالعائلة كلها. كنت اختفي في أي مكان بالقرية حتى لا أراهم، أو أهيم فـــي الجبـــال لـــساعات طويلة، دون هدف أو اتجاه. قاومت وجودهم لفترة طويلـــة، لكـــنهم واصلوا زياراتهم التي ازدادت بشكل ملحوظ. في النهاية، لـــم يكـــن هناك مفر من الاستسلام ومقاسمتهم ذكرياتي ودفء المطـــبخ. والآن والموت يقف على باب هذه الغرفة والهواء يـــصبغ عينـــيّ بـــاللون الأصفر ببطء. ربما كان وجودهم عزاء لي. ما زالوا يجلسون إلـــى جوار النار، في انتظار أن ينضم شبحي إلى أشباحهم.



(11)

تخيلتُ الأمر على هذا النحو، يغمر الضباب شــرايينى فجــأة، ويتجمد دمي كجدول الجبال في شهر يناير، وعندما ينتهي كل شيء يغادرني شبحي، ويهبط ليأخذ مكانه أمام المدفأة، ربما يكون المــوت بهذه البساطة.

تخيلته بهذه الطريقة، حتى عندما كنت أعرف أنه ما زال بعيداً، لكن مع اقتراب الموت وانتهاء الزمن والذكريات، لفّ الضباب أعمدة السرير، فأغلقت عيني مرة أخرى، أنا الآن أتذكر تلك الأيــام، لكــن فجأة يداخلني الشك فيما إذا كان شبحي يجلس منذ ذلك الوقــت بــين أشباحهم إلى جوار النار، لم تكن هذه المرة الأولى التي أشك فيهــا، إنه إحساس لازمني منذ أن ظهــرت أمــي لأول مــرة. الإحــساس الغامض القوي من أنه، ربما أكون قد متُ، وأن كل ما عــشته منــذ ذلك الوقت ليس إلا الصدى الأخير لذاكرة تضيع في الصمت.

منذ الليلة التي ظهرتْ فيها أمي للمرة الأولى، لــم أنظــر فــي المرآة، لم أفعل ذلك مطلقاً، كانت المرآة معلقة في دعامة الباب– تلك المرآة الصغيرة التي كنتُ أنظرُ فيها من وقت لآخر، للحلاقة، فأرى تقدم الشيخوخة والموت في وجهي– كانت قد تحطمت علــى الأرض في تلك الليلة بسبب ضربة ريح قوية. والمرايا التي كنتُ أعثر عليها أحياناً في القرية، كانت محطمة أو ممحاة بسبب الــصدأ والــزمن. كانت هناك بعض المرايا تصلح لمجرد تنظيفها من غبار الــصمت.

لكني لم أجد الشجاعة الكافية لمواجهة الحقيقة وجهاً لوجــه. كانــت تنقصني الجرأة دائماً في آخر لحظة، حتى لا أطل على الجحيم، الذي كان ينتظرني على الطرف الآخر من المرآة.

منذ أن ظهرت أمي لأول مرة، لم أخرج من "أينيلــى" مطلقــاً، كنتُ أفعل ذلك مرات قليلة أحياناً في إبريل لشراء الطعام والتمــوين بالمقايضة بالجلد، وأحياناً في ســبتمبر لزيــارة قريــة "بروتــو" أو "سانتياجو" لأبيع في السوق بعض أكياس الفاكهة التي كانــت تــتعفن على أشجار "أينيلى"، لكني أعود على الفور، لم أكن أحب ترك القرية وحيدة لفترة طويلة، كنت أخاف أن يتكرر ما حدث من قبــل عنــدما كنت في الجبل مع الكلبة.

منذ سنوات خمس، في ليلة من ليالي أغسطس، مازلت أذكر ما حدث في تلك الليلة، رغم حدوث أشياء كثيرة في حياتي منــذ ذلــك اليوم: من بينها موتي، مازلت أعيش ما حدث في ذلك المساء، مازال حياً في ذاكرتي، ما زلت أذكر تلك النسمة الخفيفة، رائحــة الزعتــر الذي كنتُ قد خبأت فيه الفخاخ في اليوم السابق. أذكر ذلك الــسحاب الذي كان يصعد ببطء، وذلك البريق الأسود الــذي أجبرنــي علــى العودة إلى "أينيلى" في منتصف النهار– كما لو كانــت الــسماء قــد أنذرتني بما سيحدث، والبريق الأسود يــدفعني إلــى قلــب الــضوء والعاصفة، رغم أنني تأخرت في رؤيــة القريــة، كانــت الأمطــار تحجبني والثياب تلتف حولي بفعل الرياح التي هبت بقــوة فجائيــة. ورغم المسافة التي كانت تفصلني عن القرية، فقد شــاهدتُ الفــرس مربوطة إلى باب بيت "أوريليو". شعرتُ بالمفاجأة، كانت هــذه أول زيارة منذ زمن طويل، منذ أن دفنت "سابينا"، كانت هذه المرة الأولي

التي يأتي فيها النسيان ويخترق حاجز الـصمت والمـوت. فتحـت طريقي في عكس الريح، أريد أن أعرف مـن الـذي دخـل بيـت "أوريليو" وما هو هدفه، اقتربتُ من الفرس وتعرفتُ عليهـا فـوراً- ظلت الكلبة خلفي، تحمي ظهري في صمت- تكهنت أنه المالك جاء إلى "أينيلى": كانت هناك قطع أثاث تستند إلى الحائط ، وكمية كبيـرة من الأواني تنتظر في منتصف الشارع، فكرت في البحث عنه، ثـم فضلت انتظار خروجه. كانت البندقية في يدي على وضع الاستعداد، ما أن رآني "أوريليو" حتى شُلت حركته، أشار بيـده إشـارة غيـر مفهومة، كما لو كان يحييني- بعد كل هذه السنوات- لكـن بـرودي أقنعه أنه لن يجد إستجابة مني. وقفنا وجهاً لوجه عدة ثوان، دون أن ننطق بكلمة، ربما تذكر "أوريليو" في تلك اللحظة، ذلك الفجر الـذي ودعني فيه للأبد، كان ذلك في نفس المكان الذي نحن فيه الآن، كان الصمت قد تراكم على عينيّ فلم ألحظ الآثار التي تركها الزمن على وجهه. انتحيت جانباً وأنا أهدده بالبندقية، أجبرته على الرحيـل دون أن نتبادل كلمة واحدة، ودون أن أدعه يأخذ شيئاً، وعندما اختفى بين الأشجار بفرسه، أطلقت في الهواء رصاصة بإتجاه المطر، ليفهم أنه لا يجب أن يعود مطلقاً إلى هنا. هذا لم يعد بيته ولا هذه قريته.

ظلت الأدوات والأثاث في الشارع إلى أن تآكلت، ومنـذ ذلـك الوقت لم يعد لا "أوريليو" ولا أولاده، أعتقد أنه عندما وصـل إلـى قرية "بيربوسا" قصّ عليهم حكايتي، لأن الرعاة بـدأوا فـي تجنـب المرور في الوادي بأغنامهم، وأنا لم أغادر القرية من ذلك الوقت إلا قليلاً- أذهب أحياناً إلى القرى القريبة لشراء الطعـام- لاحظـت أن الدهشة التي كانت تحدثها زياراتي تحولت إلى خوف وشك، لم يعـد

ينظر إليّ أحد كشيخ مهجور وحيد، بل ينظـرون إلـيّ كمجنـون، ويعاملوني كمجنون، كانوا يحتمون خلف نوافذهم، لكن هذا لم تكن له أهمية عندي، ولم أبين ما أشعر به نحوهم، تعـودتُ علـى الحيـاة وحيداً، وفي أعماقي كنتُ أفضل صمتهم على أحاديثهم.

سكتت كلماتهم إلى الأبد، وكان صمتهم قاطعاً، وعنـدما جـاء سبتمبر لم أهبط إلى قرية "بيسكاس" لشراء الطعام كما اعتدت علـى ذلك في السنوات السابقة، مر الخريف لذيذاً وهادئاً بـشكل غريـب. تأخرت رياح "إيراتا" في الظهور، وتأخر المطر حتى عيد القديسين، فوجدت الوقت لجني بعض الفاكهة، والبطاطس والخشب الذي يكفـي حتى الربيع، وكنت أحتفظ ببعض الاحتياجات من الشتاء الماضـي. بالإضافة إلى وفرة الصيد الذي حصلت عليه، مما جعلني أفكر أنني أستطيع الحياة حتى الربيع بلا مشاكل.

لكن مع قدوم ديسمبر، جاءت أكبر عاصفة ثلجية، أكبر عاصفة أذكرها في حياتي، ظلت تنهمر على "أينيلي" لأسـبوع كامـل. وإن كانت في النهاية أقل من العاصفة التي شهدتها في طفـولتي، والتـي أجبرت الناس على الخروج من بيوتهم عبر النوافـذ، والكـلاب لـم تنقطع عن النباح على الأسطح وفي الحظائر، لكنها كانت كافية لدفني في البيت شهراً كاملاً. الأسوأ من كل هذا، أنها دفنت الفخـاخ، ممـا أجبرني على الحياة بالقليل الذي كان لدي.

ليلة أعياد الميلاد نفد الدقيق أولاً، ثم لحم الخنزير البري، بعـد ذلك اللحم المقدد والزيت واللوبياء، أذكر أنه في تلك الليلـة طبخـت وليمة بكل ما كان في الخزين، وأنا أعرف أنه لن يـشاركني أحـد، لكني كنت أرى أن أحتفي بتلك الليلة بعشاء طيب، ثم بدأ بعـد ذلـك

النضال في سبيل الحياة، قضيت ليـــال طويلـــة مكتفيـــاً بالبطـــاطس والجوز (باقي الفاكهة كان قد تعفن في الصناديق- كانـــت رطوبـــة المخزن شديدة- وما كان في الكرم دفنه الجليد، كان مثلي تحت أكثر من متر من الجليد). أمضيت ما تبقى من ديـــسمبر وينـــاير، أســـلق البطاطس في الماء أو أشويها بين الحجارة، ثم أخرجها إلـــى النافـــذة لتبرد، وأجلس في المطبخ، أتقاسمها مع الكلبة، لم يكن عندي شـــيء آخر أقدمه لها.

بدأت البطاطس في النفاد والجليد ما زال جامداً، بارداً وقويـــاً، كان خلف الباب في حالة تجمد نهائي، ومرت الأيـــام فـــي ســـكون وفراغ، ومع مرور الأيام كان الأمل في العودة إلى الجبال أكثر بعداً، وأقل تأكيداً، حين يكون الجليد، لا فائدة في أي شيء، دفعت العاصفة بالثعابين إلى الوادي، وتختبئ الخنازير في كهوفها مثلي، في انتظار اللحظة التي تعاود فيها نشاطها الليلي بالجبال، ومع نهاية يناير هبت عاصفة جديدة- حتى قبل ذوبان جليد العاصفة الأولى- فترك التشاؤم فجأة شعوراً عميقاً بالرهبة والخيبة، وكان شعوراً جديداً، كـــان فـــي البداية غامضاً، فالزمن ينمو مع الجليد، ويزداد ثقلاً، لم أواجـــه فـــي حياتي مثل هذا الوضع الصعب، رغم أنني مررت بما هو أصـــعب- موت "سابينا"، والليلة الأولى التي قضيتها وحيداً- وها مـــا احتملـــه الآن، لكني لم أتخيل مطلقاً أنني سأواجه الجوع وجهاً لوجه.

في الأيام الأولى لشهر فبراير، كان الوضع صـــعباً، أجبرنـــي الخوف من الجوع على تقليل كمية الطعام المتبقية، وعمل شيء لـــم أتخيله في حياتي مطلقاً، وهو تفتيش القرية من أعلاها إلى أســـفلها، خاصة تلك البيوت التي هجرها سكانها مؤخراً، بحثاً عن شيء يطيل

بقائي، لم أعثر على شيء سوى بعض الدقيق في أركان الصناديق، عدة معلبات صدئة، وبعض الوقود. في أول يوم عثرت في بيت "جابين" على كيس لوبياء شبه جافة– كان صاحبه قد مات منذ خمس سنوات– كنتُ أقدمها للكلبة مطبوخة مع قشر البطاطس، في الحقيقة كانت هي انزعاجي الأكبر. كنت أستطيع الصبر لاسبوعين أو ثلاثة– يساعدنى على هذا الغضب والكرامة– لكن الكلبة لا تفهم هذا، كانت تنبح ليل نهار، مقعية أمام الباب، كما كانت في الأشهر التي مرت بعد موت "سابينا".

لم تكن مصادفة أن تتخذ الكلبة نفس الأسلوب الذي عاشته في تلك الأيام، التي تلت موت "سابينا". كان الجليد خلف النافذة، والصمت يجتاح أركان البيت كالسابق، والنار في المطبخ، وأنا متهالك في صمت، كل هذا حدث، فكرت في هذا أيضاً، في ذلك المساء وأنا في طريقي إلى قرية "بيروسا"، عندما فتحتُ طريقي في الجليد بحثاً عن أحد يساعدني في دفن "سابينا"، وبعد سنوات أهبط أيضاً في طلب العون. أن يعينوني ببعض الطعام، فكرت في ذلك كثيراً، لكن نظرات الكلبة كانت أكبر من طاقتي على التحمل، وأكبر من الإحساس بالكبرياء.

خرجت كلاب "بيربوسا" لاستقبالي على الطريق، ولم تتركني في القرية لحظة واحدة، تنبحني بخوف وتجهم، تكشر عن أنيابها المتوحشة، كما لو كنتُ لصاً أو صعلوكاً، لكن ضجيج الكلاب لم يوقظ إحساس السكان بالخطر، لم يُفتح أي باب، ولم ينظر أحد من النافذة لاستطلاع الأمر، كما لو كانت القرية مهجورة بكاملها. مثل كل القرى الأخرى بالمنطقة، التي هجرها سكانها، وظلت الكلاب

تسكنها وتحرس بيوتها وأملاكها، لم تأخذ الرحمة أصحابها لإراحة هذه الكلاب ولو بطلقة نارية قبل مغادرة القرية. أعرف أن هذا ليس حقيقة. أعرف أن ست عائلات بقيت في "بيربوسا"، وأن هناك عيوناً كثيرة كانت تتجسس من خلف النوافذ.

تصعلكتُ في الشوارع لفترة طويلة، كما لو كنت كلباً آخر في تلك الشوارع الخالية العزلاء، وكان الجليد قد بدأ في الذوبان، وتختلط في مداخل البيوت آثار أدمية بآثار الكلاب، كنت أسمع همس خطواتهم الحذرة خلف الأبواب فيزيدون بصمتهم القلق الذي يسببه حضوري بين بيوتهم، أعتقد أنهم يتذكرون الآن اللحظة التي وضعتْ فيها "سابينا" حداً لحياتها. ويتساءلون من جديد عن السبب الذي دفعني إلى هبوط الطريق بين الجليد، بعد كل هذه السنوات، وربما أعتقد أحدهم أنني فعلت ما فعلته "سابينا"، وما يراه الآن هو شبحي الذي جاء يطلب المساعدة (مؤكد أن هذا سيحدث هذه الليلة) ليأتوا إلى "أينيلى" لدفني، لكني كنت أعرف أني مازلت حياً حتى هذه اللحظة، رغم أن الوحدة بدأت تصيبني بالبلبلة، كما في الأحلام البطيئة، حواسي لا تزال تؤكد لي وجودي على قيد الحياة. شعرت بوجودهم وحصار الصمت الذي بدأت تضربه الكلاب من حولي. هذا الصمت يقلقهم أيضاً. تابعت سيري بطول القرية في محاولة لتنبيه السكان، ولا شك أن الكلاب بدأت تتساءل عن سر عدم اهتمام أصحابها بهذا الغريب، لكني فهمت السبب، بعد اختراق حاجز الصمت الذي ضربوه من حولي، اخترقت القرية من أقصاها إلى أقصاها، وطرقت عدة أبواب دون إجابة، عرفت أنه يمكنني أن أذهب عندما أريد، لأن أهل "بيربوسا" لن يفتحوا لي أبوابهم.

خارج حدود قريتي التي رسـمتها بكبريـائي، عـدت متتبعـاً خطواتي إلى البيت الذي مايزال مفتوحاً لي، عندما عدت كان الوقت ليلاً، والسماء باردة وانعكاس الجليد يغمر القريـة بـضوء غريـب، تأملتُ هذا المشهد حتى الفجر، وأنا أجلس على مقعد مجاور للبـاب، والكلبة إلى جواري.

(12)

هذا مكاني أو ما تبقى من حياتي، ومن هناك شاهدتهم يرحلـــون واحداً بعد الآخر، كالسحاب الذي يمر الآن أمام عيني.

من هناك، من المكان نفسه الذي شاهد منه أبـــي رحيـــل أهلـــه القاسي، عانيت في سكون انهيار القرية وجسدي، انتظرت مستـــسلماً مجيء تلك الكلبة، هي الوحيدة التي رافقتني حتى النهاية، الكلبة وهـــذا النهر الصامت الكئيب، وحيد ومهجور مثلي تماماً، يحمل في مجراه تيار حياتي، وهو الوحيد الذي يساعدني على البقاء.

ذهبتَ هذا العام إلى ضفافه عدة مرات بحثاً عن الرفقة، عنـــدما كانت العزلة أقوى من أن تخففها الذكريات، فعلت ذلك مرات عديـــدة من قبل، في تلك الأيام التي بدأ الناس يرحلون فيها عن "أبنيلي" كنت أهبط للاختباء في الطاحونة ليلاً، حتى لا أجد نفسي مـــضطرا فـــي الصباح للذهاب لوداعهم، كان النهر يمنحني صمته وقدرتـــه علـــى الكتمان، يمنحني سر أشباح قديمة عرفتها منذ الطفولة لكنني لم أكـــن أذهب إليه بحثاً عن الوحدة، فالوحدة الآن في كـــل مكـــان، تـــضمخ البيوت والهواء من حولي، لأنني أجد الهدوء إلى جواره وبين أشجار البندق والحور التي تحيط بشاطئيه.

لم أتوصل إلى معرفة ذلك السبب، ربما كان السبب هو حفيـــف الأوراق على الماء، وربما كانت ظلال الجذوع التي تربك ذاكرتـــي ونظراتي عند لقائها، لكن رفقـــة أشـــجار الحـــور كانـــت تعطينـــي الإحساس بالراحة مثل بلوط "إيراتا" أو صـــنوبر "باســـاران"، كنـــت أشعر أنني لست وحيدا وأنا بين أشجار النهر، بل هناك شخص آخر

يرافقني بين الظلال، هذا الإحساس الذي كان ينتابني في الطفولة ويقلقني، اختفى مع تقدم السن، لكنه يعود الآن من جديد ليساعدني على احتمال عزلة "أينيلي"، ومرور الأيام القاسية في شوارعها.

الإحساس بأنني لست وحيداً بين أشجار النهر، لم يكن خداعاً في غابات "إيراتا" أو "باساران"، كانت بين أشجار النهر ظلال حقيقية غير ظلي، وحفيف كلمات لا تنتهي، تتبخر كالدخان في العيون، كنت أشك أحياناً في حقيقتها، لكن نحيب الكلاب- ذلك النحيب الذي كان ينبت في المياه. ويختلط بأصوات الأواني التي ألقاها سكان "أينيلي" في الماء، على مر التاريخ- كانت تسمعها الكلبة أيضاً، مثلي تماماً، وكانت تجيب عليها بعصبية عندما تتعرف فيها على أشقائها، في البئر الذي أغرقتهم أنا فيه، عندما وضعتهم في كيس بعد ولادتهم بقليل.

مسكينة هذه الكلبة، ماتوا قبل أن تعرفهم، لأنها كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذها هي، وعندما فتحت عينيها كان أشقاؤها يتعفنون في الكيس، وربما في مكان ما أسفل النهر، هذه الكلبة لم تعرف أحداً من جنسها، ماتت أمها في الولادة- كانت عجوزاً، والعجوز "مورا" كانت تحمل على ظهرها ولادات عديدة- نشأت وحيدة، وحيدة تماماً، نشأت في شوارع خالية من الكلاب التي كانت قد هجرت القرية، "سابينا" هي أمها الحقيقية، ربتها على لبن الماعز، كانت تضمها أحياناً في السرير لتدفئها. لكن "سابينا" ماتت دون أن تعمّدها، لم نتذكر ذلك، ثم ما حاجة هذه الكلبة إلى اسم يميزها عن غيرها إذا كانت القرية قد خلت من الكلاب؟

من كان يتوقع أن هذه المسكينة التي لا تحمل اسماً ولا ذرية، تلك العمياء قد نجت من الغرق بأعجوبة- كانت الأخيرة في الولادة-

عندما رحلوا بقيت هي معي، وعندما حبست نفسي في البيت بعد رحلتي الأخيرة إلى "بيربوسا"، قررت ألا تخرج من هنا، كانت تبعتني دون أن تفكر في مستقبلها، ظلت راقدة تحت المقعد الذي قضيت فيه السنوات الأخيرة من حياتي، قاسمتني دون مقابل، سوى بعض الحنان والطعام.

أجهل إن كانت قد فقدت أيضا الإحساس بمرور الأيام، أو أن خلف اللامبالاة يختبئ الخذلان الذي يسببه عدم القدرة على إيقاف عجلة الزمن، لم يكن من السهل معرفة ذلك، كانت مقعية دائما بين قدمي، تحت المقعد، أو تهيم في القرية خلف خطواتي، ولا يطل من عينيها سوى تعبير رهيب من الملل والخيبة، لحظات الهروب إلى الجبل، كانت الوحيدة القادرة على تغيير حالها، ومن وقت لآخر عواء ذئب بعيد يعبر قمم "إيراتا"، لكن سرعان ما تعود إلى حالة القنوط، وعندما نعود إلى البيت، كانت الكلبة تدخل في حالة الكآبة التي كانت تزداد وطأتها أكثر فأكثر، ربما كان يحدث لها ما يحدث لي، الزمن يمر بطيئاً، ينزلق بين البيوت والأشجار ببطء وثبات، حتى أنني لم أكن أشعر به يتبخر بين يدي كزجاجة كحول.

الزمن ينساب كما ينساب النهر، تعيساً هادئاً في البداية، ثم ينقلب على نفسه كالنهر، ينعقد حول العناقيد الطرية وأعشاب الطفولة، ينحدر على المضايق والقفزات التي تحدد بداية إسراعه، حتى بلوغ العشرين أو الثلاثين، يعتقد الواحد منا أن الزمن نهر، إنه إحساس غريب يغذي نفسه ولا ينتهي أبداً، لكن تأتي لحظة يكتشف الإنسان فيها خيانة السنين– تأتي دائما لحظة– ينتهي فيها الشباب فجأة، ويذوب الزمن ككومة من الجليد اخترقها شعاع، منذ تلك

اللحظة، لا يعود أي شيء إلى ما كان عليه، تبدأ الأيام في القصر، ويتحول الزمن إلى بخار زائل– كالجليد الذائب– ويلف القلب شيئاً فشيئاً يخدره، وعندما ننتبه يكون الوقت قد مضى، ولم يعد هناك وقت للتمرد.

انتبهت إلى أن قلبي مات منذ اليوم الأول الذي رحل فيه آخر الجيران، إلى ذلك الوقت كنت قد كرست حياتي للعمل، وانشغلت بالبيت والأسرة– رغم أن جهودي ذهبت سدى– لم يكن لدي الوقت حتى ألاحظ أنني أشيخ، لكن تلك الليلة قضيتها في الطاحونة، عندما كان "خوليو" يعد أشياءه للرحيل، والمطر يسقط على النهر بكثافة، فجأة انتبهت إلى أن قلبي أيضاً، كان غارقاً بكامله في المطر، بعد ذلك حدث ما حدث لـ"سابينا"، ومنذ ذلك اليوم، أجبرتني العزلة على أن أكون شاهداً أبدياً لا يمكن تلافيه لدماري الشخصي تحت ثقل السنوات التي عشتها.

كانت العزلة قوة، وازدادت تلك العزلة منذ أن قررت ألا أبحث خارج "أينيلي" عن ما لا يستطيع إنسان أن يقدمه لي، كانت العزلة قوية حتى أني فقدت الإلهام وذاكرة الأيام، فالأمر يتعلق بسبب ذلك الإحساس الذي اجتاحني في الشتاء الأول، بعد موت "سابينا"، لكنه ببساطة يتعلق بسبب عدم قدرتي على تذكر ما حدث في اليوم السابق، لقد كان جريان الساعات المنقطع في عروقي مع الدم، كما لو كان قد توقف فجأة، كما لو كان قلبي قد تعفن بكامله– مثل ما حدث لفاكهة أشجار "أينيلي"– تنزلق عليه السنوات دون أن يشعر بها، أتذكر ذلك الإحساس الغريب بالخوف الذي أصابني، وكان ينتابني في الليل ككابوس، يجبرني على البقاء مستيقظاً، أتقلب في

الفراش بسبب خوفي من الهزيمة أمام النوم فلا استيقظ مرة أخرى، لكني اعتدت عليه شيئاً فشيئاً، إلى درجة أنني بدأت أجرب لذة خاصة، بأن أترك نفسي في قبضة ذلك الدوار، الذي يذكرني بطفولتي عندما كنت أسبح في النهر، كنت استلقي في الماء في سكون، وأترك نفسي للتيار الذي يأخذني إلى الممرات السفلية التي تؤدي إلى الطاحونة، الي لم يعد منها أحد، أو أجلس أمام الباب أو في المطبخ بنظرة هادئة لا مبالية مركزة على أي نقطة في الممر، أو على النار، فيجتاحني ذلك الإحساس من جديد، ذلك الإحساس من القلق الغامض للسلام والخطر.

في النهر، كنت أعرف كيف أتوقف وأهرب من التيار، منقذاً حياتي في أخر لحظة، لكن الآن التيار في داخلي، لا أشعر به لكني أعرف أنه ينساب في شراييني كنهر غير مرئي يأخذني عنوة إلى الدوامة الأخيرة عندما ينفذ الزمن في الممر اللانهائي والأخير للموت، أحيانا، عندما تكون الوحدة أكثر عنفاً من الصمت، أشعر باقتراب الظلال بعنف شديد، فأغادر المكان وأهيم ساعات طويلة إلى جوار النهر، لأنسى حفيف المياه الميتة التي تجري في عروقي.

في إحدى تلك المرات التي لا أذكرها الآن– عادت الذاكرة تخونني وتذوب كالصقيع عندما أحاول استدعاء الأيام الأخيرة من حياتي– فاجأني الليل وأنا أجلس إلى جوار النهر، نعم أذكر ذلك، كان مساءاً بارداً، من أمسيات نوفمبر أو ديسمبر (كانت الريح تهبط مع النهر البارد وأشجار الحور عارية من أوراقها) مرت ساعات عديدة دون أن أتحرك من مكاني هذا، والكلبة ترقبني وهي مقعية بين الجذوع، ربما كانت مندهشة من تخلفي في العودة إلى جوار النار،

مؤكد أنها كانت تشعر بالبرد، لكني بقيت جالساً ملتفاً فـــي ســـترتي أتأمل في صمت، هبوط الليل بين الأشجار والنهر، كنت أشعر ببـــرد غريب في رئتي- برد أكثر كثافة من برودة النهر- وخـــوف غيـــر مفهوم من العودة إلى البيت ومواجهة صمت أمي في المطـــبخ ليـــوم آخر، كنت قد اعتدت على حضورها شـــيئاً فـــشيئاً، ثـــم استـــسلمت لمقاسمتها كل ليلة الذكريات وجمرات المدفأة، لكن شـــحوب المـــوت وصمتها مازالا يصيباني بالقلق كاليوم الأول.

هبط الليل على النهر ببطء، ولف في ظلاله شكل أشجار الحور وقلقي، ومع هبوط الليل، اتخذ النهر شكل حياة جديدة، بدأت الـــريح تعوي بين الجذوع، وأسكت التيار صدى الزبد المتواصـــل، وتـــرك عشق الماء، طريق غاض لهسهسات الظـــلال والأصـــوات، أوراق وأجنحة طيور همهمات، نحيب، اختلاط الريح بالتيار، وامتلأ النهـــر بالأسرار والوعيد، اقتربت الكلبة وجلـــست إلـــى جـــواري- الآذان منتصبة والحواس يقظة، لم أكن أعرف إن كانت ترغب في صحبتي أم تبحث عن رفقتي، ربما كانت قد سمعت نباحاً غريباً بين الجذوع، لم احتمل هذا المكان أكثر من هذا، كنت أعرف أن أمي تنتظرني في المطبخ كالعـــــادة- رائحة الدخان تأتي من القرية فتشير إلى أنهـــا تكلفت بإشعال المدفأة- أعرف أيضاً أنني لو تأخرت، ستأتي للبحـــث عني عند النهر، وقفت قبل أن تـــصل، واتخـــذت طريقـــي دون أن أعرف إلى أي اتجاه، عبرت الجسر بقفزة واحدة، وانطلقت في اتجاه معاكس لاتجاه الدخان.

راقبتني الكلبة بحيرة- توقفت على الجسر، شكت في متـــابعتي لبعض الوقت- لكنها لحقت بي على الفور- ســـارت إلـــى جـــواري

باتجاه الجبال، سيرنا في طريق "بيربوسا" ببطء، توغلنا بين أشجار البلوط ونحن نشعر بابتعاد الدخان مع النهر من خلف ظهورنا، كانت الليلة مظلمة، ربما كانت أكثر الليالي التي أتذكرها ظلمة، كانت السحب تتقشع طوال النهار، وتضيف الآن ظلالها السوداء اللانهائية إلى ظلال البلوط، في لحظة من اللحظات فقدنا الطريق، حاولنا العثور عليه من جديد، لكنا في محاولاتنا فقدنا الاتجاه كان الأمر غريباً، فالكلبة وأنا نعرف الجبل شبراً شبراً، كنا قد مشيناه مرات عديدة حتى أنه كان يمكننا أن نسير فيه بعيون مغمضة، نعرف كل منحدر، كل شجرة، لكن هذه الليلية فقدنا الاتجاه بشكل غير مفهوم، لم يستطع أي منا أن يعرف الاتجاه الصحيح، كما لو كانت أشجار البلوط قد لعبت معنا لعبة الاختفاء فغيرت من مكانها، كما لو كان المكان قد اتخذ من حولنا شكلاً فجائياً جديداً، وتبخر طريق "بيربوسا" من تحت أقدامنا، أجهل الوقت الذي بذلناه للعثور عليه من جديد، وأجهل أيضاً إن كنا قد عبرناه في محاولاتنا للعثور عليه. كل ما أعرفه. إننا اكتشفناه فجأة عند أحد المنحدرات أمام الأخشاب المحترقة وجدران البيت القديم المتساقطة.

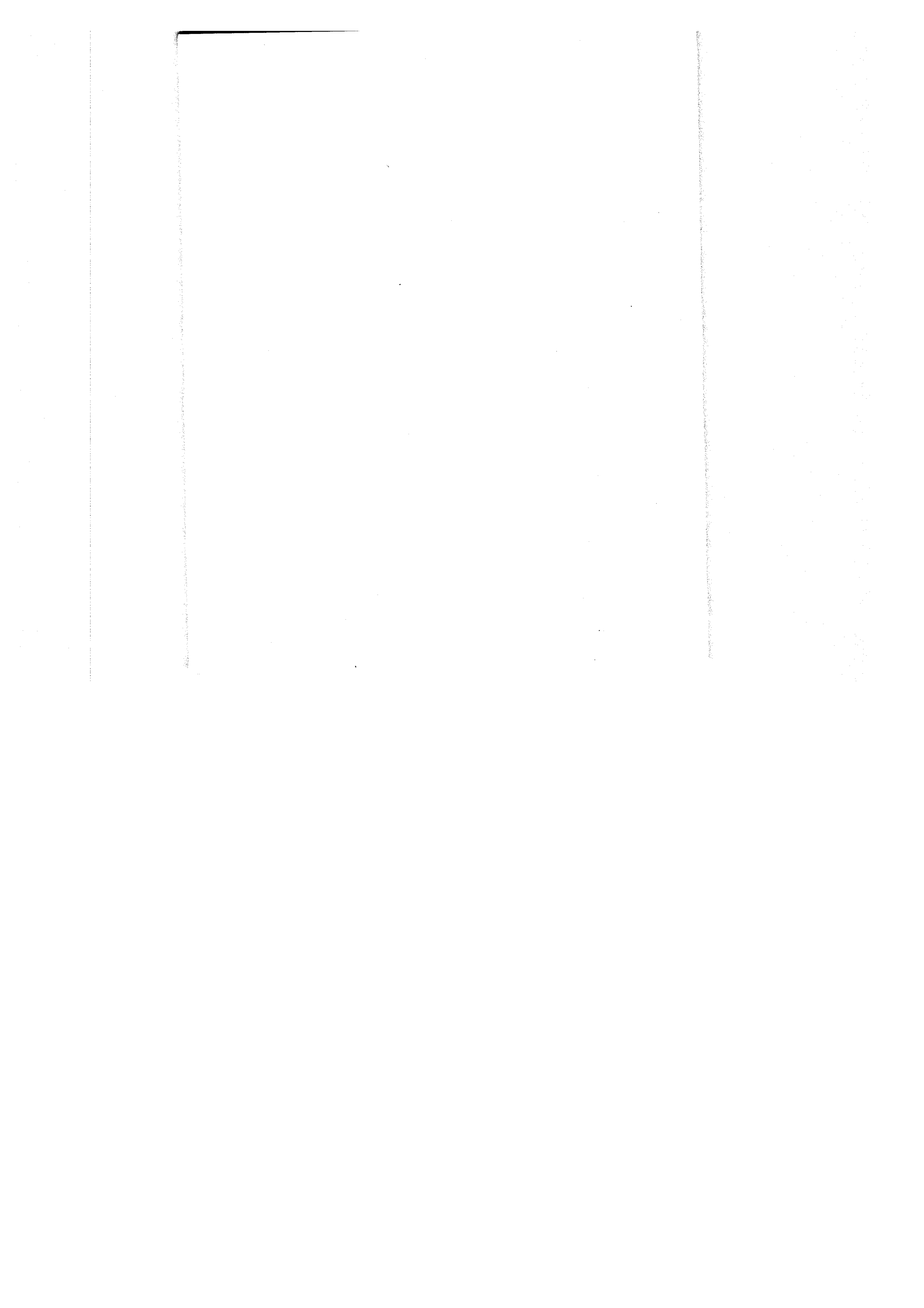
ألقيت بنفسي على الحشائش من شدة التعب، استندت إلى شجرة بلوط قريبة من البيت والطريق، كنت أتنفس بصعوبة من شدة الإجهاد، قلدتني الكلبة وهي تلهث بعصبية، دون أن تنقطع عن الالتفات إلى البيت لحظة واحدة، كان واضحاً أنها لم تحب المكان، رغم أن ما حدث كان سابقاً على ميلادها- لا هي ولا "مورا" ولا أم "مورا"، عندما فاجأ الحريق العائلة أثناء نومها، وكانت جميع الحيوانات في الحظيرة- يبدو أن المدفأة كانت هي السبب، شكل

الجدران ورائحة الحريق في الدعامات دفعت الكلبة إلـى الإحـساس بالرفض، وأنا أيضا كنت أشعر بهذا الإحساس، رغم سنواتي الخمسة عشرة صعدت للمساعدة في إخماد الحريـق مـع أهـالي "أينيلـي" و"بيربوسا"- أتذكر أن أجراس الكنائس ظلت تدق طوال الليل وحتـى وقت متأخر من الفجر- ما زال هدير الحيوانات المحبوسة محفـوراً في ذاكرتي بقوة، والنحيب الرهيب لتلك العجـوز المـسكينة التـي عاشت ما يقرب من الساعة وهي متفحمة الوجه والشعر، لذلك عندما كنت أمر من هنا في طريقي إلى "بيربوسا" أو أثناء عودتي إلى البيت كنت أستعيذ بالله من الشيطان، وأحث خطاي، لكن في تلـك الليلـة جلست بين أشجار البلوط والكلبة إلى جواري، لم تكن الجدران تقلقني على العكس كانت تبعث في نفسي الطمأنينة، بعد ساعات من التيـه فى الجبل، أخيراً عثرت على طريق العودة إلى البيت.

في اللحظة التي كنت استعد فيهـا للعودة إلى البيت - شـعرت بحاجتي للعودة- سمعت فجأة النحيب الرهيب بـين جـدران البيـت المتفحم، بدأت الكلبة في النباح، وانتابتني قشعريرة من أعلـى إلـى أسفل، لكني وليت وجهي شطر بيتي وسرت بضع خطـوات قليلـة كانت كافية لكي أراها: العجوز تتجه للقائي، وهي تحملق في عيني، تتوسل كما لو كانت تنتظر منذ ذلك اليوم، أن يعود من ينقذها.

نعم، كانت هي لا شك في ذلك، نفس القميص الممزق، الـشعر الأبيض، مايزال يثير الدخان، الوجه الأسود المـتفحم، الـذي يـشي بالرعب، تراجعتُ ثم انطلقتُ أجري في الاتجاه المعـاكس، تبعتنـي الكلبة وهي تتدحرج على المنحدر، وتنبح من خلفي بلا انقطاع، فجأة كما لو كان الجبل يتحرك في كل اتجاه، البلوط يتباعد في صمت أمام

خطواتي، الحشائش تقرقر في نار المطبخ، ودخـــان يتـــصاعد مـــن الحشائش والبلوط، ثم يتكاثف شيئاً فشيئاً، ويحجب الجبل عن عينـــي، عدت لرؤيتها من جديد، كان يلفها الدخان، كانت تنتظرني في نهايـــة المنحدر كظل أسود يتضرع، ودون أن أتوقف عن الركض، اتجهـــت يميناً نحو الأيائك، لكنها كانت هناك، العجوز في كل مكان، خلف كل منحدر، خلف كل شجرة، تختبئ خلف كل ظل، خلف كل انحنائه في الطريق، لم تكن هناك فائدة من الركض، لأنها هناك في كل مكـــان، تنتظرني حيث أذهب وتواصل ذلك النحيب دون كلل، ولا تتوقـــف: إسقني واقتلني.. اسقني واقتلني...



(13)

اسقني واقتلني!

من الذي يقول ذلك؟ لمن هذا الصوت المتكرر، برتابة لا تكل منذ فترة طويلة؟

هل هو صوت العجوز أم أنه صوتي الذي يكرر هذه الكلمات؟

وهذا الشهيق؟ هل هو شهيقي أم أنه الشهيق الأخير– الأخير الذي لا ينتهي– لابنتي؟

يحرق الدخان رئتي، يجفف حنجرتي، يضع في صوتي أصداء أصوات أخرى، والتردد غير المنتظم لشهقات أخرى ليست لي: أبي أنا عطشي... اسقني واقتلني... هل سأموت؟... اسقني واقتلني... أبي أنا خائفة... اسقني واقتلني... اسقني واقتلني... نعم سأموت، أنا أموت الآن، هذه حقيقة، أنا عطشان ومحموم وخائف، أموت وتحترق في صدري كل الأصوات الميتة، وكل سجائر حياتي، حياتي التي تنتهي لا محالة.

أعتدلُ على الوسادة، أبحث عن أطراف السرير البارد، أتنفس بعمق وبطء، أدع الهواء، يدخل رئتي بارداً ومتوحشاً. قبل أن استعيد وعيي من جديد– كاملاً– أسمع صدى صوت نحيب العجوز مرة أخرى: اسقني واقتلني... اسقني واقتلني...

اسقني و اقتلني...

لو كان هناك أحد في "أينيلي" كنت رجوته كما تفعـــل العجـــوز الآن، آه لو كان هناك أحد غيري في "أينيلي".

لكني وحيد، وحيد تماماً مع الموت وجهاً لوجه.

(14)

كثيراً ما سمعت أن الإنسان يواجه هذه اللحظة وحيداً، قد يكون محاطاً في احتضاره بالأهل والجيران، لكنه مسئول عن حياته وموته، فهما ينتميان إليه وحده، لكني أعتقد– وحياتي توشك على النهاية، والمطر الأصفر في النافذة يعلن وصول الموت– أن نظرة إنسانية، أو مجرد كلمة خداع بسيطة أو عزاء، ربما تكفي لتخفيف الوحدة الرهيبة التي أشعر بها الآن، ولو للحظة قصيرة.

منذ عدة ساعات والليل يحيط بي كاملاً، يمحو الظلام الهواء والأشياء من حولي. البيت غارق في الصمت، هل هناك شيء يشبه هذا غير الموت؟ يكون أكثر صفاء مما يحيط بي الآن؟ مؤكد لا، مؤكد أنه لن يتغير شيء لا في ذاكرتي ولا في عيني، عندما يسيطر عليهما الموت، سيظلا يتذكران وينتظران إلى ما هو أبعد من الليل ومن جسدي، سيواصلان الموت الأبدي إلى أن يأتي يوم جديد، ويجدان من يخلصهما من سحر الموت إلى الأبد.

لكن متى يحدث هذا؟ كم من الزمن سيمر قبل أن يعثروا عليّ وتستطيع روحي أخيراً أن تستريح إلى جوار جسدي إلى الأبد؟ عندما كان هناك سكان في "أينيلي"، لم يتجول الموت في القرية لأكثر من يوم واحد، وعندما يموت أحد في القرية كان النبأ ينتقل من جار إلى جار حتى نهاية القرية، والذي يكون آخر من يعلم بالنبأ يخرج إلى الطريق ليخبرَ أي حجر، لأنها الطريقة الوحيدة للتخلص من الموت، والأمل الوحيد أن يمر أحد عابري السبيل ويأخذ الحجر في طريقه دون أن يعرف، فعلتُ أنا ذلك عدة مرات، عندما مات الشيخ

"بيسكوس" مثلاً، أو عندما مات "كاسيميرو" زوج "إيزابيـل"، الـذي عثروا عليه في إحدى الليالي ميتاً في طريق "كورتيا"، وبجسده عـدة طعنات، كان قد ذهب إلى سوق "فيسكال" لبيع بعض الأغنام، لكنه لم يعد أبداً بثمن البيع، وبعد عشرة أيام عثروا عليه تحت كومـة مـن الأحجار، كنت أرعى الأغنام في المرتفعات، وكنت آخر مـن يعلـم بالنبأ في تلك الليلة، والجميع نيام عدت إلى المكان وألقيت النبأ علـى أحد الأحجار التي كان القاتل قد أخفى بها الجثة.

عندما ماتت "سابينا"، بدلا من الحجر أخبرت أحدى شـجيرات الكرم، كانت شجرة تفاح عجوز، كانت منحنيـة، وجافـة تقريبـاً، زرعها أبي إلى جوار البئر عندما جئت أنا إلى هذه الـدنيا، ليـرى كيف ينمو كلانا مع الزمن، وعندما ماتت "سابينا" كان عمر الـشجرة سبعين عاماً، وكانت قليلة الثمر، لكن في تلك السنة غصت أفرعهـا في الربيع بالزهور، وعندما حل الخريف كانت قد انحنت تحت ثقـل التفاح، كان تفاحاً كبير الحجم سمينا وأصفر اللون، تركتهـا تـتعفن على الشجرة، دون أن أتذوقها لأني كنت أعرف أن أزهارها تغـذت على عصارة عفن الموت.

تلك العصارة التي تجري الآن في شراييني ببطء وحـلاوة، ولا يوجد في "أينيلي" من يخلصني منها عندما أموت، سـأكون وحيـداً، الأول والأخير في العلم بخبر الموت. لذلك يجـب أن أخـرج إلـى الطريق لأخبر به شجرة أو حجر، لكني لن أستطيع أن أفعـل ذلـك. ولا أستطيع الذهاب إلى "بيربوسا" كما فعلت عندما ماتـت "سـابينا" لأطلب من الجيران أن يدفنوني، ولا أمل لي سوى أن يعثروا علـيّ، هنا في هذا السرير، متجها ببصري إلى الباب، بينما تنهش الطيـور والطحالب جسدي وتفسد عصارة الموت ذاكرتي ببطء.

(15)

تمر الساعات ببطء ويمحو المطــر الأصـــفر ظـــلال أســـطح "بيسكوس" ودائرة القمر اللانهائية، إنه مطر خريف السنوات السابقة، المطر الذي يواري البيوت والمقابر، ويصيب الرجال بالــشيخوخة، يدمر وجوههم وخطاباتهم وصورهم الفوتوغرافية في بطء، هو نفسه الذي دخل روحي في إحدى الليالي وأنا بالقرب من النهــر لكـــي لا يغادرها ما تبقى لي من أيام حياتي.

منذ تلك الليلة والمطر يغمر ذاكرتي، ويصبغ نظراتي بالأصفر، بل الجبال أيضا والبيوت والسماء والذكريات التي تبقت، كل شـــيء يتحول في البداية ببطء، ثم بعد ذلك يزداد الأصفر مع إيقـــاع الأيـــام التي تمضي من حياتي، كل هو حولي مصبوغ بالأصفر، كمـــا لـــو كانت الرؤية ما هي إلا المشهد الطبيعي، والمشهد هو مرآة لنفسي.

بدأ التغيير البطئ بالحشائش أولاً ثم طحالب البيـــوت والنهـــر، وبعد ذلك السماء، ثم في وقت متأخر، الأسطح والسحاب والأشـــجار والماء والجليد والأيائك، حتى الأرض غيرّت لون باطنهـــا الأســـود بلون تفاحات "سابينا" المتعفنة، اعتقدتُ في البداية أن ذلك لـــم يكـــن هذياناً، وهماً خطف بصري وروحي التي بدأت في التـــواري مـــن جديد، لكن هذا الوهم ظل معي، في كل مرة أكثر تحديداً، أكثر تأكيداً وواقعية، إلى أن حدث في صباح أحد الأيام، ما أن اســـتيقظتُ مـــن نومي وفتحتُ النافذة حتى شاهدت بيوت القرية بكاملها وقـــد تحـــول لونها إلى الأصفر.

أتذكر أني همت بالقرية طوال النهار، كما في الأحلام، ورغم الواقع الحاسم لم أصدق ما شاهدت، كان كل شيء حولي أصفر، الجسور والجدران والأسطح والنوافذ وأبواب البيوت، صفراء كالقش، صفراء كالهواء في مساء عاصف، أو كبريق الرعد في كابوس، كنت استطيع رؤيته، الإحساس به، لمسة بيدي، تلطيخ حدقة عيني وأصابعي كما كنت أفعل في طفولتي، هناك في المدرسة القديمة، وأنا ألعب بالأصباغ، وما كنت أعتقد أنه وهم، هذيان خاطف لبصري وروحي، كان شيئاً واقعياً مثل وجودي الآن على قيد الحياة.

في تلك الليلة لم أتمكن من النوم، بقيت حتى طلوع الفجر، جالساً أمام النافذة، ملتفاً في دثاري، أرى كيف تتوارى الأسطح والشوارع تحت الأوراق، والكلبة تنبح أمام الباب في حزن، وأمي تروح وتجئ في المطبخ، وتضيف حطباً إلى النار، من المؤكد أنهما كانتا تشعران بالبرد، وفي نحو الخامسة أو السادسة صباحاً، قبل بزوغ النهار، رأيتهما تخرجان وتختفيان بين البيوت كما كانت تفعل "سابينا" عندما كانت على قيد الحياة، والكلبة تتبعها في تنزهاتها الليلية بين الجليد، والجنون، لكن هذه المرة عادت الكلبة وحدها، لحظة أن تحول الليل إلى بقعة رمادية شاحبة، وقفتْ أمام البيت، تحت النافذة، وظلتْ ترمقني في صمت، ركزت عيونها عليّ كما لو كانت تراني للمرة الأولى، وعندها اكتشفتُ– في عكس الضوء الأول الخاطف لأشعة النهار– أن ظل الكلبة أيضاً كان أصفر اللون.

لم يكن ذلك الاكتشاف هو الأخير، ولا أكثرها صعوبة، لم يمر وقت طويل حتى اكتشفت أن ظلي أصفر، ومنها اعتدت على تحلل الألوان، والظلال والجنون الذي تتركه حواسي، فهمت أن ذلك لم

يكن سوى الضوء الذي يتحلل، كان يمكنني أن أراه في السماء في ضوء النهار، وغرف البيوت حيث يختلط الصمت والرطوبة في عجينة صفراء ثقيلة، كما لو كان الهواء، قد تعفن، كما لو كان الزمن والطبيعة قد تحللا شيئاً فشيئاً، باحتكاكهما بأفرع شجرة تفاح "سابينا"، عندما فهمت ذلك– في تلك الليلة التي عرفت فيها أن الكلبة كانت ميتة مثلي– أخذت البلطة وقد قررت اقتلاع تلك الشجرة من جذورها، لكني عرفت على الفور أن ذلك لن يفيد شيئاً، عصارة الموت اجتاحت كل القرية، كانت تنهش أخشاب وهواء البيوت، تضمخ عظامي كرطوبة صفراء بطيئة، كل شيء حولي كان ميتاً، وأنا لم أكن استثناء، رغم أن قلبي كان ينبض.

ظل قلبي ينبض حتى هذه الليلة، لكنه لم يستطع أن يستريح أبداً، كان مسنناً كساعة قديمة، في بضع ثوان، ربما بضع ساعات– قبل طلوع النهار– دون أن يعود الإحساس بدوار الحلم في نبضه، الحلم كالجليد– يتجمد ويتحطم لكنه يُغرق من يغوص في أعماقه اللذيذة، كم مرة تذكرت ليالي طفولتي الطويلة، وأنا جالس إلى جوار النافذة، عندما لم تكن هناك العزلة، والخوف لم يكن إلا الغلالة التي تخفي رموز النوم الذي سرعان ما يأتي، كم مرة رغبت أن يتجمد جليد النوم، وأنا أرى الليل يمتد أمام عيني كفراغ ميت، حتى لا استيقظ مرة أخرى، لكن ذلك لم يحدث مطلقاً، لم أعد للإحساس بالدوار الكاسر للجليد عند نفاذه داخلي، تمر الليالي متجهمة وبطيئة، أراها وأنا في السرير أو أدور في البيت دون توقف، والكلبة تنبح في الشارع، وأمي تنتظرني في المطبخ، أغادر الفراش أحياناً، عندما يشتد إيقاع القلب، ويدق عظامي كساعة على وشك الانفجار، أو أقف

إلى جوار النافذة، وأهيم في القرية ساعات طويلة، بين الوحدة وبقايا البيوت، إلى أن يفاجئني الصباح في أي مكان وقد اعتراني القلق والتعب، فلا أذكر إن كنت قد نمت هناك أو أنني وصلت إلى هذا المكان قبل قليل.

الآن لا أذكر الوقت الذي أمضيته دون نوم، أيام شهور، ربما سنوات، هناك لحظات في حياتي تختلط فيها الذكريات بالأيام، نقطة غير محددة، وغامضة تذوب فيها الذاكرة كالجليد، ويتحول الزمن إلى مشهد ثابت صعب الإدراك، وربما مرت سنوات منذ ذلك الوقت- ربما هناك من أحصى السنوات في مكان ما- وربما لا، وربما كانت هذه الليلة التي أعيشها هي الليلة التي انتبهت فيها إلى أنني ميت. ولهذا السبب لا أستطيع النوم، لكن على أي حال، ما أهمية ذلك الآن؟ مر الزمن بسرعة حتى أنني لم أجد الوقت لاحتسابه كم؟ مئة يوم، مئة شهر أو مئة سنة، ما أهمية ذلك؟ وأنا لا أعرف كيف مر الزمن، ربما كانت هذه الليلة ممتدة ومظلمة منذ ذلك المساء، لِمَ استدعي زمناً لا يوجد، زمناً ينام ثقيلاً على قلبي.

(16)

الصمت كالرمال يدفن عيني، كالرمال لا تستطيع الريح إزاحتها.

الصمت كالرمال يدفن البيوت، وكالرمال تتساقط البيوت، أسمع نحيبها وحيدة، كئيبة وقد أغرقتها الريح والحشائش.

تسقط شيئاً فشيئاً دون نظام ثابت، دون أمل، وتأخذ في سقوطها البيوت الأخرى، بعضها يتساقط في بطء، في بطء شديد تحت ثقل الطحلب والصمت، والأخرى تتكفئ على الأرض فجأة، بعنف وتتخبط كحيوانات تسقط برصاص صياد مريض لا يرحم، لكنها تسقط جميعاً على الأرض طال الزمن أم قصر، أو تقاوم بلا فائدة، تنتهي إلى الأرض التي جاءت منها، ويحدث ما كان متوقعا منذ رحيل أول إنسان عن "أينيلي".

أول البيوت التي سقطت كانت بيوت "شانو" و"لاورو"، مُحيت تماماً من الإحراج وشجيرات الذاكرة وجدران بين "خوان فرانثيسكو" و"آثين"، أما بيتي فهو أحد البيوت القديمة التي لا تزال قائمة لكن من يدري، ربما يقاوم، وربما يأخذ سبيلي، ويظل للنهاية يقاوم بقنوط وقوة، وهو يراقب البيوت الأخرى التي تذهب فيبقى بيتي وحيداً بعد ما هجرته البيوت بعد هجرة الجيران، ومن المحتمل أن يعود "أندريس" إلى "أينيلي" ليشاهد أسرته، وربما يبقى بيته كذكرى لنضال أبويه، وشهادة صامتة على نسيانه لنا.

سيكون صعباً لو عاد "أندريس" يوماً، سيجد بيته كومة من الحجارة بين الشجيرات والبقايا، لو عاد سيجد الطريق مسدوداً بالعليق، والسواقي مردومة والحواجز والبيوت مهدمة، لن يجد شيئاً من كل الذي كان يمتلكه في يوم من الأيام. لا الحواري القديمة، ولا كروم النهر، ولا البيت الذي أتي به إلى العالم في يوما من الأيام. تكون الثلوج قد دفنت الأسطح، والشوارع والطرق سدتها العاصفة، سيبحث عن الدعامات بين العليق المتعفن، ويحفر حطام الجدران القديمة ربما يجد كرسياً مكسوراً، أو بعض الألواح الفخارية من المدفأة التي كان يستدفئ إلى جوارها عندما كان طفلاً، لكن هذا سيكون كل شيء، لن يجد أي صورة منسية. لا أثر لحياة، عندما يعود "أندريس" إلى "أينيلي" سيكون ذلك ليعرف أن كل شيء قد ضاع.

عندما يعود "أندريس" إلى "أينيلي"– هذا لو عاد في يوم من الأيام– سيكون كثيرون قد فعلوها قبله، من" بيربوسا" و"أسبيرا"، من "أوليفان" و"سوسين"، رعاة "جيسيرو" وغجر "بيسكاس"، السكان القدامى يأتون جميعاً كالنسور، بعد موتي ليحملوا ما تبقى في هذه القرية، التي تركتُ حياتي فيها، يحطمون مزاليج الأبواب، ينهبون البيوت والحواجز، بيتاً بيتا، يسرقون الدواليب والأسرة والصناديق والموائد والملابس والأدوات وعدة العمل، وأواني المطبخ، كل ما جمعه أهل "أينيلي" طوال قرون من العمل المتواصل، كل ما جمعناه نحن سكان "أينيلي" سيذهب إلى أماكن أخرى، إلى بيوت أخرى، وربما يُباع في حانات "ويسكا" أو "ثاراجوثا"، وهو ما حدث في "باساران" و"ثيات" وفى "كاسياس" وفي "أوتطل" فى "اسكارتين" وفى "بيرغوا"، ونفس الشيء سيحدث قريباً فى "جيسيرو" و"بيربوسا".

وربما حتى الآن لم تكن لدى أحد الـشجاعة للحـضور إلـى "أينيلي" لحمل الأشياء التي تركها السكان، خاصة بعد ما حدث مـع "أوريليو"، من حينها لم يجرؤ أحد على عبور الحدود التي تفـصلني عنهم، كنت أرى أحيانا من يراقب من بعيد، أو من بـين الأشـجار، لكنهم كانوا يهربون عند رؤيتي، مؤكد أنهم يخشون أن أنفذ وعيـدي الذي قطعته على نفسي أمام بيت "أوريليو".

ما لم يعرفوه- ولن يعرفوه أبداً- أنني كنـت أراهـم وأشـعر بالخوف أيضاً، ليس خوفاً منهم ولا من بنادقهم، بل من نفسي، كنـت خائفاً من رد فعلي لو التقيت بأحدهم في الجبل وجهاً لوجه. الحقيقـة إن ما حدث لـ"أوريليو" لم يكن سوى إنذار، أو تهديد الهدف منه أن أخيفه من العودة لإزعاجي، لكنـي لـم أفكـر مطلقـا فـي تنفيـذ تهديـدي، ولا حتى فكرت- على الأقل في ذلـك اليوم- في أنني قادر على إطلاق النار عليه لو عاد مرة أخرى، وعندما كنـت أجـد من يسير في الطرق أو يراقب القرية من الجبل كنت أشعر بـالخوف من نفسي- خوف من بندقيتي ودمي- وكنت أختبئ.

لكن بعد فترة لن أكون على قيد الحياة، ربما بعد دقائق أو بضع ساعات- قبل طلوع النهار-سأكون جالساً حول النار مـع المـوتى، حينها تكون "أينيلي" مهجورة تماماً، عزلاء تماما تحت رحمة تلـك العيون التي تراقبها الآن، ربما كان لديهم الوقـت الآن للاقتـراب، وربما انتظروا قليلاً للتأكد من أنني ميت ولن أخرج لهـم بالبندقيـة، لكن ما أن يكتشف أهل "بيربوسا" الأمر، ففي اليوم التـالي لـدفني، سيهجمون كوحوش ضاربة تحط على أحجار القرية العزلاء، وبعـد قليل تموت القرية تماماً أيضاً، وهكذا فإن اليـوم الـذي يعـود فيـه "أندريس" لن يجد سوى كومة كبيرة من الحطام والشجيرات.

ربما لا يعود "أندريس" أبداً، يمر الزمن بطيئاً ودون أن ينسى ما قلته له في الليلة السابقة على رحيله، ربما كان هذا أفضل، وربما كان يجب أن أكتب له رسالة هذا الصباح- أترك الرسالة على المائدة إلى جوار السرير ليجدوها عندما يأتون- أذكّره مرة أخرى بكلمات ذلك اليوم، لا تعد أبداً، أو على الأقل أجنبه مرارة مشهد القرية المهدم، وبيته المدفون تحت الطحالب، كأبويه تماماً.

فات الوقت، حتى بالنسبة لما سيحدث لهذه القرية، وقدر هذا البيت ومصيري، كان يجب على "أندريس" أن يبقى معنا، لقد فات الوقت على هذا كله، المطر يمحو القرية من عيني، وأسمع في صمت الليل همهمة نباتية بعيدة، مغرية كزهرات الاورتيجا التي تتعفن في نهر دمي، إنها همهمات الموت الخضراء، تقترب نفس الهمهمة التي سمعتها في غرفة ابنتي وأبوي تختمر في القبور، وفي الصدور المنسية، الصوت الوحيد الذي يزهر عندما لا يجد من يسمعه في "أينيلي"، ينمو طوال الليل، كما تنمو الأشجار، يتعفن في نهر دمي، مع المطر وشمس مارس، يجتاح الممرات وأسقفها المتساقطة، تمحو آثاره الذكرى البعيدة لمن بنوا هذا البيت وعاشوا فيه، لن يسمع أحد هذه الهمهمة، ولا حتى الحيات والطيور، ولن يتوقف أحد ليسمعه- كما أسمعه الآن- ذلك النحيب الأخضر للحجارة والدم. عندما تجتاحها خضرة وبرودة الموت، وفي يوم ما، بعد مرور السنوات، ربما يمر مسافر إلى جوار البيت دون أن يعرف أن قرية كانت هنا إلى جواره.

سيعود "أندريس" عندما ينسى تهديدي القديم، وتوقظ شيخوخته فيه الحنين إلى القرية، سيبحث بين الحطام وتحت الحشائش عن ذكرى أبويه، من يدري؟ ربما يعثر بين الحشائش على لوحة حجرية محفور عليها اسمي، وشكل القبر الذي قد ارقد فيه بعد قليل، وانتظره.

(17)

هذا الصباح حفرت قبري، ما بين قبـــري "ســـابينا" و"ســـارة"، حفرته بآخر ما أملك من قوى، وبمساعدة الجاروف الوحيد، أزلـــت الأعشاب من المدخل، وشبكة العشب والاورتيجا الثقيلة التي كانـــت تغطي المقابر بكاملها، منذ دفن "سابينا" لم يدخل أحد إلى هذه المقابر.

عندما يشاهدونه– ربما يمتلئ بالعشب لو مر وقت طويـــــــل– سيفكر أكثر من شخص بأني مجنون، كمـــا قـــال "أنـــدريس" ابـــن "سوساس"، من يحفر قبره بنفسه لا يكون إلا مجنوناً أو محكوماً عليه بالإعدام، لأنه الوحيد القادر على حفر قبره قبيـــل موتـــه أو تنفيـــذ الإعدام فيه، لكني أقول لـــ"اندريس" ابن "سوســـاس" بـــأني لـــست مجنوناً ولا أشعر بأني محكوم عليّ بالإعدام، إلا إذا كان الجنون هو الوفاء للذكريات ولبيتي، أو كان الإعدام هو النسيان الذي حكموا بـــه علّي، فإذا كنت قد حفرت قبري ، فهذا يعني ببساطة هو أن أتجنـــب دفني بعيداً عن زوجتي وابنتي.

فكرت في صنع صندوق لي، كما صنعت صناديق أبوي، وأبي صنع صناديق أبويه، خاصة أنه لم يعد أحد يمكنه أن يجهز صـــندوقاً لي، لكني لا أستطيع لأن الأخشاب التي جمعتها لا تزال رطبة، رغم أنني قطعتها في الربيع، والقمر لا زال هلالاً، حتى لا تعاني الأشجار العجوز المحيطة بالمدرسة، ويمكن لأخشابها أن تعمر طويلاً تحـــت الأرض، تعلمت هذا السر من أبي عندما كنت طفلاً، الـــشجر كـــائن

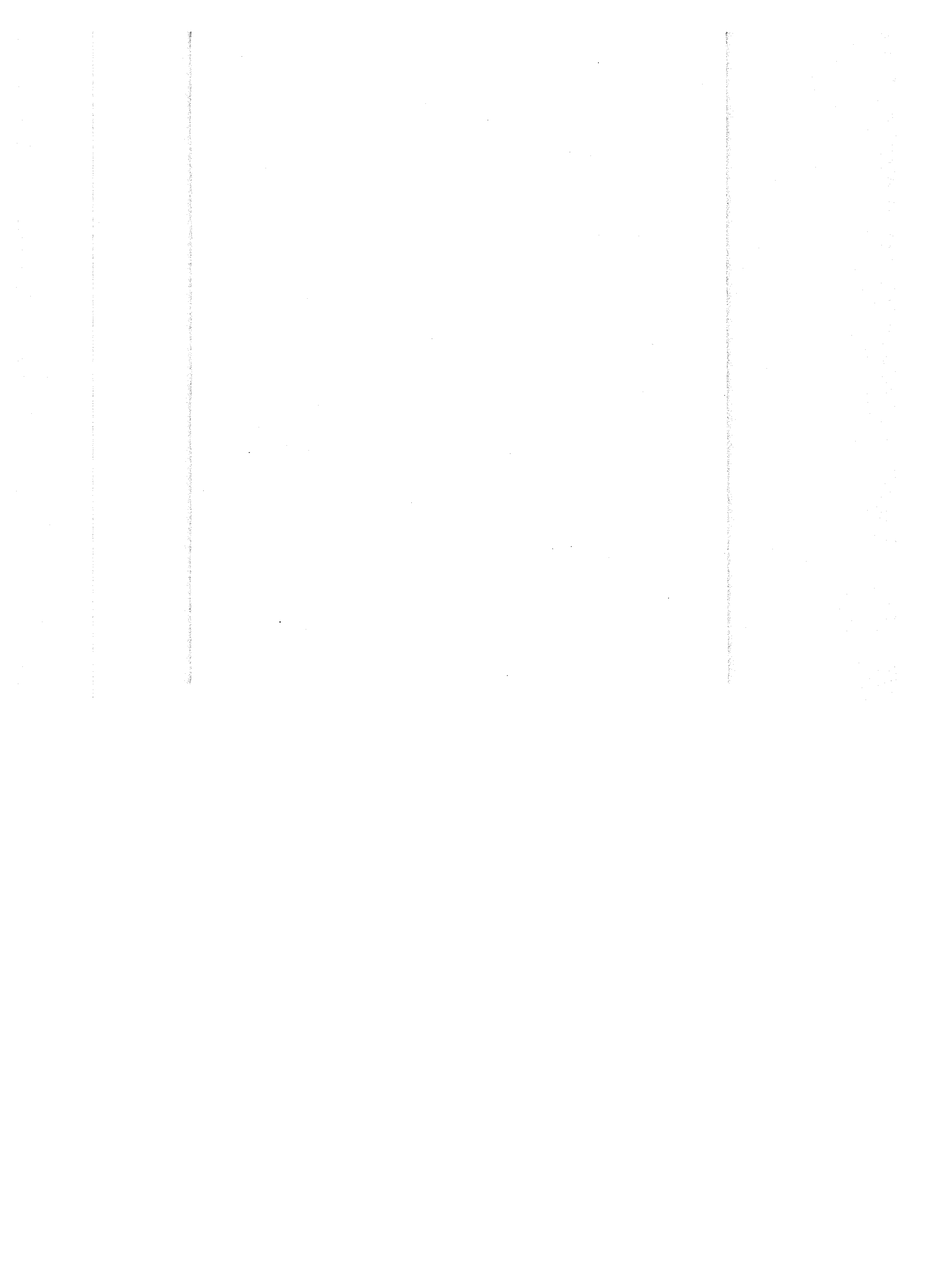
حي يشعر ويعاني وينحني أمام الألم، عندما تخترق جسده البلطة، فتتشكل العروق والعقد التي يتسلل منها العفن والسوس فيما بعد، فتقضي على أخشابه مبكراً، والشجر ينام عندما يكون القمر هلالاً، وكما يموت الإنسان فجأة وهو في نومه، فإن الشجر لا يشعر بالقطع، فتبقى أخشابه ملساء قادرة على مقاومة عفن الأرض لسنوات طويلة.

حلمت دائماً أن أموت هكذا: كشجرة نائمة، كزيزفون تقطعه البلطة في هدوء الليل تحت ضوء القمر، حتى في هذا ليس لي حظ أبي، ليس لأنني أموت، في عزلة كاملة، بل أعجب كيف أن الجليد يتقدم في دمي، لست يقظاً فقط- يقظ وساهر- أمام باب الموت، وقد غادرني النوم وأسراره منذ ليال عديدة، كما لو كان هذا غير كاف، بدلاً من النوم ليساعدني على مواجهة الموت، اختفى القمر وهجرني.

لم يعد لي أحد يساعدني، ولا حتى الكلبة ولا أمي التي لم تزرني هذه الليلة لتكون في رفقتي- ربما كانت تنتظرني إلى جوار القبر مع "سابينا" و"سارة"- والكلبة ترقد الآن تحت كومة من الأحجار في منتصف الشارع، مسكينة كلبتي رغم كل محاولاتي مازلت أذكر نظرتها الأخيرة، وستظل ذكراها ما دام في قلبي نبض، وهي لن تفهم سبب فعلتي هذه أبداً.

لن تفهم الإحساس الذي انتابني عندما أبعدتها من جانبي إلى الأبد، كانت الكائن الوحيد الذي لم يهجرني طوال هذه السنوات، رافقتني هذا الصباح إلى المقابر، وبقيت أمام الباب، ساكنة ومندهشة، كما لو كانت تحاول معرفة لمن هذا القبر الذي كنت أحفره، عادت بعد ذلك معي إلى البيت ورقدت تحت الكرسي، كالعادة على استعداد لمراقبة مرور الساعات الطويلة، ليوم آخر، وعندما رأتني أخرج من

جديد حاملاً البندقية، شع الفرح في عينيها، كان قد مضى وقت طويل دون أن نخرج إلى الجبل، بدأت في الجري والقفز والنباح، وعندما وصلنا إلى القرب من الكنيسة، استدرت وبقيت هي ساكنة، ترمقني في صمت، كما لو كانت تسألني عن سر تصويب البندقية نحوها، لم أنتظر، لم أحتمل نظرتها الوفية الحزينة للحظة أخرى، أغمضت عيني وضغطت، سمعت كيف الطلقة دوت بين البيوت، كان دوياً وحشياً لا ينتهي، لحسن الحظ فإن الطلقة هشمت رأسها بالكامل، كانت هي الطلقة الأخيرة التي بقيت معي، احتفظت بها لهذا الأمر منذ عدة سنوات.



لم يقدم لي أحد هذا الجميل، لم يتذكرني أحد حتى فـــي لحظـــة موتي، تركوني هنا في عزلة كاملـــة، مهجـــوراً، أجتـــر ذكريـــاتي ووحدتي ككلب، تركوني هنا ككلب مسعور ليقـــضي عليـــه الجـــوع والعزلة، ومحكوم عليه بأن يأكل نفسه.

لو كنت فعلت نفس الشيء مع الكلبة، لو لم أحتفظ لهـــا بـــآخر طلقة حتى النهارية، ووجدت الشجاعة الكافية لقتلها، كانت ســـتنتهي بامتصاص عظامي، كانت ستصعد إلى هنا فـــي أي يـــوم لتـــشبع جوعها من جسدي.

لأنها ما كانت تهجرني ولو ميتاً، ولا بعـــد أيـــام مـــن اختفـــاء خطواتي من البيت، ما كانت لتذهب الكلبة من "أينيلي" لتبحـــث عـــن قرية أخرى وصاحب آخر وبيت آخر، كانت ستبقى هناك، ما كانـــت لتتحرك من أمام الباب لحظة واحدة، تحرس فـــي النهـــار مـــداخل القرية، وتنبح القمر في الليل، وعندما ينتهي كل شيء لا تستطيع أن تقف على قدميها وتبدأ عيونها في الدوران، سترقد في أي ركن مثل ما أفعل أنا هذه الليلة، تنتظر وحيدة وصول الموت.

هذا هو ما فعله كلب "جابين"، ذلك العجوز الراعي الذي قاسمه خمسة عشرة عاماً من حياته، وعندما مات بقي وحيـــداً، كـــالعجوز "أدريان" بلا بيت ولا صاحب ولا أغنام، ظل الكلب مقعياً أمام الباب لعدة أيام، دون أن يتحرك من أباب الباب لعدة أيام، دون أن يتحـــرك

من مكانه، ينبح ويحزن ليلاً ونهاراً، كنا نطعمه بعض الخبز الجاف، وبقايا طعام الكلبة، التي كانت صغيرة بعد، لكنه لم يكن يقرب الطعام، ولا يدعنا نقترب من البيت لنضع له الطعام، فنضعه في طبق ونتركه عند أول الشارع، بينما ينبحنا هو مهدداً من بعيد، في إحدى الليالي لم أحتمل نباحه المؤسي أكثر من هذا، خرجت بالبندقية مستعداً لقتله، لكن الظلام كان حالكاً فلم أصبه، هرب الكلب، وهو ينزف وينبح من الألم، ظللنا نسمع نباحه في الجبل لثلاثة أو أربعة أيام، إلى أن صمت في إحدى الليالي فجأة وللأبد، ربما مات بسبب النزيف أو من نهش الذئاب.

نفس الشيء سيحدث لي بعد قليل، ما أنا إلا كلب؟ وماذا كنت أفعل أنا طوال هذه السنوات وحيداً هنا، لم أكن إلا كلباً أكثر وفاء لهذا البيت ولـ"أينيلي"؟ كنت طوال هذه السنوات وحيداً منسياً من الجميع، محكوماً بالإعدام، أقضم عظامي وذكرياتي، حرست طرق "أينيلي" ليلاً ونهاراً، دون أن أسمح لأحد بالاقتراب من القرية، كنت وحيداً طوال هذه السنوات، وشاهدت مرور الأيام والشهور في انتظار أن يتذكرني أحد، أو يتذكرني الوحيد الذي يستطيع أن يفعل معي ما فعلته مع الكلبة هذا الصباح.

(19)

لكن لم ينتابني الخوف منه مطلقاً، ولا حتى عندما كنت طفلاً ولا في الليلة التي علمني فيها المطر الأصفر أسراره.

لم يداخلني الخوف منه مطلقاً، لأنني كنت الوحيد الذي يعرف أنه مجرد صياد كلاب عجوز، مسكين ووحيد.

وعندما يتأخر في الوصول كنت أعتقد أنه ربما نسيّ أنني مازلت على قيد الحياة، أو فعلت ما فعلته "سابينا" منذ زمن، لكن لم تكن لدي القوة على ذلك، ولم أصل فيه إلى أبعد من مجرد التفكير البسيط، وفي آخر لحظة كانت تنقصني الشجاعة الكافية لأضم مقدمة البندقية بين أسناني، وأشعر كيف تطيح الرصاصة برأسي.

لم أشعر بالخوف منه أبداً، فهو صياد كلاب، استدعيته عدة مرات في الليل ليفعل معي ما فعلته هذا الصباح مع الكلبة.

لكنه غاب طويلاً قبل أن يستجيب لي أكثر مما اعتقد أنني قادر على احتماله، انتظرته طويلاً حتى أنني أخاف أن يكون مجرد حلم، يخرجني من النهار بعد قليل.

لا، ليس حلماً، إنه هو الذي يناديني باسمي في صمت الليل، إنه هو الذي يصعد الدرج ببطء، يعبر الممر ويدخل من الباب الذي يواجهني، لكني لا أستطيع رؤيته، لن أرى شيئاً.

(20)

شخص ما سيشعل شمعة ويضيء محجر عيني الفارغتين، ثـــم يترك الشمعة على المائدة المجاورة للسرير، ويـــذهبون بعـــد ذلـــك ويتركوني وحيداً من جديد.

سوف يمضون الليلة في المطبخ يوقدون النار- بعد كـــل هـــذه الأيام وينتظرون بزوغ شمس النهار، يحصون الدقائق والـــساعات، ساعة ساعة وبينما يمضي الليل، لن يجرؤ أحد منهم على العودة إلى حجرتي ليراقب اشتعال الشمعة، لن يجرؤ على الخروج من المطبخ، يقضون الليل هناك حول المدفأة دون حماس حتـــى لقـــص بعـــض الحكايات والأحداث التي تساعدهم على قتل الوقت، كالعـــادة، ودون أن يعرفوا أن شبح أمي موجود إلى جوارهم تحرك نار المدفأة.

بعد ساعات من الانتظار يطلع الصباح، ويخرجون إلى الشارع بإحساس غريب، إنهم عاشوا كابوساً أسود لا ينتهي، قد بفكر بعضهم وهو يستنشق هواء الصقيع البارد النفاذ، بأن الليلة التي أمضاها فـــي هذا البيت لم تكن إلا ذكرى سيئة لليال أخرى. كان يعتقد أنه قد نسيها بين ضباب طفولته، لكن شعلة الشمعة في النافذة، تذكرهم بأني هناك في الطابق العلوي، وأيضاً رائحة الفاكهة الميتة المتعفنة التي تلفـــت هذا الصباح، كما تلفت شـــجرة التفـــاح النائمـــة فـــي دم "ســـابينا"، حينئـــــذ، ودون أن يضيعوا لحظـــــة واحدة، يذهب بعضهم للبحث عن ألواح خشبية في البيوت- ألواح محطمة، مخلوعة، ينزعونها من

الأبواب والطوابق– بينما يعود الباقون إلى هنا لحملي إلـــى المطـــبخ ملفوفاً في بطانية.

لن يظل هناك أكثر من الوقت المطلوب لتجهيز الصندوق، مـــن المؤكد أنني لن أنتظر حتى يأتي باقي سكان "بيربوســـا"، لأنـــه لـــم يخبرهم أحد، ولن يتذكروا طلب القس من قرية "أوليبان" ليصلي عليّ صلاته الأخيرة، عندما يكون الصندوق جاهزاً، ســيحملونني علـــى أكتافهم في صمت، ويسيرون في الشوراع المـــسكونة بالــشجيرات والحشائش إلى أن يصلوا إلى المقبرة، والقبـــر الـــذي حفرتـــه هـــذا الصباح إلى جوار "سابينا" وابنتي، دون أن يؤدوا أي صلاة، يهيلـــون التراب بالجاروف الذي تركته هناك، في تلك اللحظة ســـيكون كـــل شيء قد انتهى بالنسبة لي ولـــ"أينيلي".

ربما يبقون بعدها في "أينيلي" بضع ساعات، يبحثون في البيوت عن أدوات أو بعض الأثاث أو الأسرة التي تنفع ذويهم، لا شـــك أن عزلة القرية ويقينهم أنني تحت التراب، سيجعلهم يشعرون بالراحـــة، ربما فتشوا كل القرية، لكن مع هبوط المساء، وهبوب الـــريح علـــى النوافذ، يدفعهم إلى حمل أشيائهم والبدء في رحلـــة العـــودة باتجـــاه "بيربوسا".

عندما يصلون إلى أعلى سفح "سوبري بويرتو" سيكون الظـــلام قد خيم، وتتقدم أمواج الظلال الثقيلة عبر الجبال، وتتدحرج الـشمس متعثرة ومتهالكة، مخضبة بالدم، تمـــسح أكـــوام الركـــام بـــضعف، والحطام التي كانت يوماً (قبل ذلك الحريق الذي فاجأ الأسرة بكاملها وحيواناتها أثناء النوم) البيت الوحيد في "سوبري بويرتو"، ويتوقـــف زعيم الجماعة، يتأمل الحطام والوحدة الثقيلـــة، والمكـــان المظلـــم،

ويشير بعلامة الصليب في صمت وينتظر أن تلحق به بقية جماعته، وعند اكتمال الجمع إلى جوار سياج البيت القديم المحترق، والعـــودة إلى زمن مضـي، ليروا كيف أن الليل سيسيطر على بيوت وأشـــجار "أينيلي" يوماً أخر، بينما يشير أحدهم بعلامة الصليب مـــرة أخـــرى، وهو يهمهم بصوت خفيض.

– يبقى الليل لمن يكون.